

رواية الفيل

البحر أمامها

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

محمد جبريل

على رسوم "عبد"

سلسلة شهرية لنشر القصص العربية والعالمية
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

دار الهلال

الاختراقات

قيمة الاشتراك السنوي
(١٢٠ صنفًا) ٦٠ جنيهًا مصريًا
بائيل (ج. م. - ج. م.) تسعد
مقدمًا نقدًا أو بحدالة
بريدية غير حكومية -
البلاد العربية ٢٥ دولارًا -
أمريكا وأوروبا وآسيا
وأفريقيا ٤٠ دولارًا -
بالقوى دول العالم ٦٠ دولارًا
القيمة تشهد مقدمًا بشيك
مصري أو لائحه مرسومة
دار الهلال -

Print: subscription@darhalla.com

الإدارة

القاهرة
٦٦ شارع محمد عز العرب بك
(البنديان سابقًا)
ت ٢٢٧٦٥٠٠ (٧ خطوط)
الكتابات
م. ح. ٦٦ القبة - القاهرة
- الرقم البريدي ١١٥٦٦ -
شراعية الصور - القاهرة
ج. م. - ج. م.
مكس

Telex 92703 hbl u n

مكس

FAX: 3625469

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شبيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفني

محمد أبو طالب

المدير الفني

محمود الشيخ

سكرتير التحرير

هالة زكي



الغلاف ورسومات داخلية
عليه سبيل

الإصدار الأول

يناير ١٩٩٦

العدد ٧٢٠

أكتوبر ٢٠٠٩ م

شوال ١٤٣٠ هـ

تشرين أول ١٧٢٦ ق

فمن القصة

سوريا ١٢٥ ليرة - مصر ٢٠٠ جنيه
- الأردن ٢١٥٠ فلس - الكويت
٢٥٠ دينار - السعودية ١٢ ريال
البحرين ١٠٩ دينار قطر ١٩ ريال
- الإمارات ١٢ درهم - سلطنة
عمان ٦٠ ريال - اليمن ٤٠ ريال
- المغرب ٤٠ درهم - فلسطين
٤٠٠٠ ليرة - سوريا ٤٠٠٠ ليرة
- لبنان ٩٠٠٠٠٠ ليرة

الطبعة الإلكترونية

darhalla@idc.gov.eg

البحر أمامها

محمد جبريل

إسم الرواية : البحر أمامها

تأليف : محمد جبريل

إشراف : محمود قاسم

الخطوط : محمد العيسوي

رقم الإيداع : ١٧٨٣٥ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : I . S . B . N : 977-07-1374-0

إلى جدتي أنيسة حبيب
التي تهب - رغم الغياب -
نمارها ، كشجرة طيبة -

سألتنى أن أذكر لك الغريب ومحنته ،
وأصف لك الغربة وعجائبها .

وقد قيل :

الغريب من جفاه الحبيب

وأنا أقول :

بل الغريب من صار غريباً فى وطنه ،
وأبعد البعداء من كان غريباً فى محل قريه .
«أبوحيان التوحيدى»

Ambly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

لما دفعت ضلفتي النافذة ، لامست وجهها نسمة باردة ، امتصها
الحر والرطوبة . نظرت إلى نصف الدائرة أمامها ، ما بين بنايات
السلسلة وقلعة قايتباي . الموج حصيرة ، أضافت إلى سكونه قوارب
متناثرة ، لا تتحرك ، كأنها مغروسة في الخياء . صيانو السنارة تناثروا
فوق المكعبات الأسمنتية الهائلة ، ينتظرون جذبة سناراتهم في الماء ،
ورجل يكنس الرصيف المقابل بمقشة مجدولة من ليف النخيل ، وثمة
شاب وفتاة ، جلسا على المقعد الرخامي ، تعلوه المظلة الخشبية ، في
مواجهة البحر (المقعد نفسه الذي كانت تجلس هي ومحرم إليه) لف كل
منهما نزاعه حول خصر الآخر ، واتجها بنظراتهما إلى الأفق .

هذا هو نهارها الأول في الشقة . سبقتة اللبلة الأولى . شغلتها
بترتيب ملابسها في الدولاب ، وبإعادة تنظيف الأشياء بما يسهل عليها
حرية الحركة والتصرف .

كان باسم آخر من غادروا الشقة .

أهملت الدموع في عينيه ، وارتباك . مد يده لمصافحتها ، فاجتذبت ،
عانقته حتى أحسست بأنفاسه في بشرتها .

قال في لهجة اعتذارية :

- ماما رحبت بإقامتك معنا .. لكنك ترفضين !

قال رامي :

- شقق هذه الأيام عشش ضيقة ..

وشرد في الصمت كأنه يتدبر ما ينوي قوله :

- أنعى من الآن هم المكان الذى سنخصصه للمولود القادم .
أدركت أنه يلح باستحالة أن تظل فى بيت ابنتها .
فوتت الملاحظة :

- هل اقتنعت هناء بمؤاخاة باسم ؟
قالت هناء فى نبرة هامسة :
- رامى يتكلم عن أميته !

لم تكد تطمئن إلى الحياة فى بيت هناء ، حتى حدث الصدام الذى لم تتوقعه . ألفت الأماكن والأشياء والأوقات ، والاكتفاء بالإنصات الصامت لاختلاط الآراء والملاحظات والنداءات . تحولت حياتها ، فى الشقة الصغيرة .

إلى ما يشبه الصورة الثابتة :

الباب الخارجى ، الصالة ، الحجرتين المتجاورتين ، إحداهما لهناء ورامى ، والثانية لباسم ولها ، صور الفنانين ولاعبى الكرة على جدران حجرة باسم ، نجفة الصالة المطفأة للمبات ، نافذة المطبخ المطلة على المنور ، تكوينات النشم فى جدران الحمام ، البلاطة المكسورة أسفل الطرقة ، حتى نسيج العنكبوت فى زاوية سقف المطبخ .

ترددت فى قبول عرض هناء أن تنتقل إلى بيتها . لم تتصور ابتعادها عن الشقة المطلة على البحر ، شرفتها ، نوافذها ، الصالة ، الحجرات الأربع .
قالت هناء :

- ستقيمين فى بيت ابنتك .

استطردت مهونة :

- أيام قليلة وتعودين .

حين سبقتها فاطمة إلى دخول الشقة ، ناوشها شعور هو أقرب إلى الغربة ، كأنه قد مضى سنوات على غيابها . تعودت على شقة هناء ،

لكن الشعور الذي ظل يملكها أنها ضيفة ، ستعود - ذات يوم - إلى شقتها .

تأملت الصالة ، والحجرات ، وقطع الأثاث ، والموضع الذي كان يتطلع منه إلى أفق البحر .

اعتادت سفره في مهمات خارج الإسكندرية ، يغيب أياماً ويعود . هذه المرة ، يؤلمها الشعور بالفقد ، لن تهين نفسها - كما في المرات السابقة - لانتظاره ، تشبع اطمئنانها بالمكالمات التليفونية ، تسأل عن مواعيد الطائرة ، تعد الوجبات التي يحبها ، يصحبها رامي . إلى مطار القاهرة ، أو مطار النزهة ..

رحيله هذه المرة بلا عودة ، هي لن تراه ثانية . طلبت من جودة البواب أن يظل شراؤه للصحف كما هو قبل أن يغيب محرم ، تطيل قراءة الحوادث والتحقيقات والمواد التي كان يكتبها . يتصفحها .

تردد على الشقة قارئ جامع على تمرار . يتلو في زوايا البيت - لطرد الشر - آيات من القرآن ، وأدعية .

أمضت اليوم في وصل ما انقطع ، واستعادة الألفة .

قالت في التليفون للصوت المنفعل :

- الشقة التي شهدت حياتنا هي وطننا !

قال باسم :

- أخشى أن تشعري بالضيق أو الملل ..

- عندي التليفزيون والراديو .. والكلام في التليفون نصف المشاهدة ..

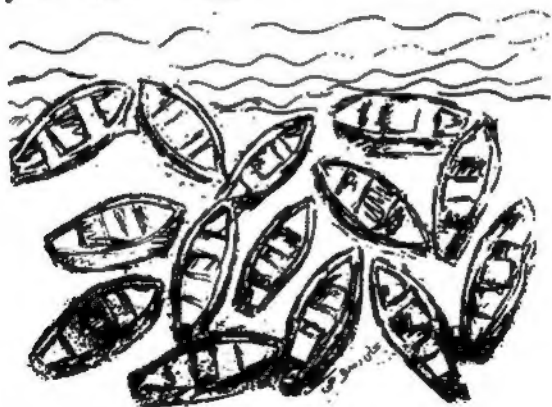
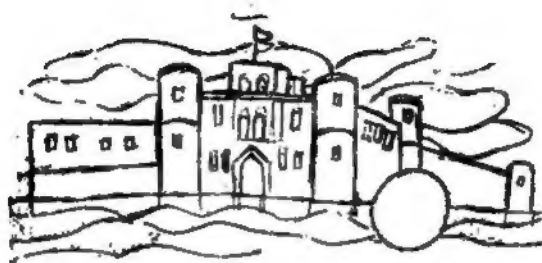
وهزت قبضتها في تأكيد :

- سيكون خيراً !

نفضت الشقة ، تنظر إلى ما فيها بعينين غير ما كانت تنظر بهما .

تكتفت في داخلها مشاعر القلق والتوتر الصامت .

أدركت أن حياتها لن تعود إلى ما كانت عليه .



بعد أن أعقبت الباب خلف رامى ، اتجهت إلى هواء بنظرة متسائلة

- ألم تجدى فى الإسكندرية أفضل منه ؟

- ما يعيبه ..^٤ وظيفته محترمة ، ومستقبله مضمون .

حين عرست هواء على أنبيها أن يلتقى رامى ، أوماً برأسه موافقاً

كان قد تحول ، بحكايات هواء . إلى فرد من الأسرة . فاح لى رامى بسر

خطير .. كتب رامى مذكرة مهمة . رامى يذاكر الإنجليزية .. رامى بدأ

مشروعاً لحسابه .. رامى حزين لضياح صفقة كانت فى يده .

بدت ريارته متوقعة ، ربما لمحدد الريارة .

هين لتقته نجاة للمرة الأولى ، شعرت بالنفور تحافه .

قالت

- يضيقنى لشاب الذى لا يمل الكلام عن نفسه '

طل فى نفسها ما روعته هواء من توجس . كلماتها المعجبة بها سمته

شطارة رامى . عمليت لا تفهمها ، وإن بدت غامضة ، وغير مفهومة . فتشت

فى ملامحه أو تصرفاته عن شىء لا تحبه .

عانت على محرم أنه لم يكلف نفسه عاء السؤال عن رامى . ما عمله فى

داخل الدرة الحمركية ؟ هل يعمل فى الحكومة ، أو فى شركة أهلية ، أو أنه

يعامر لحسابه الشخصى ؟

وفق محرم نون أن يسأل ، أو يناقش . قال . مبروك . وهو يعيد بطاقة

رامى - مقبولة - إليه .

لم يجد فى طبيعة علاقة هاء ورامى ما يدعو إلى السؤال أو التشكك -
لم يندش هاء حتى فى تبارلها العريب عن كل ما كانت أعدت له نفسها من
«ستكمال براسابها العليا» . ظلت صامئة ، وممتسمة ، لقول رامى
- هاء حصلت على بكالوريوس التجارة ، وهو يكفى لإدارة بيت !
قالت لهاء :

- رامى لا يريد روجة ، إنما يريد حارية ..

أردفت لاتساع عينيها بالعضب :

- إنه يحب التملك ، بزواجكما صمك إلى ممتلكاته .

استطردت موضحة :

- ساعده استعدادك للخصوع .

- هذا رأيك .

لقول بالتنازل بداية لا نهاية لها ..

تمنت لو أن هاء عرفته على حقيقته ، لكنها مدت كالمساقاة ، هو الذى
يطلب ويأمر ، ويفرض سيطرته .

مع أضاف إلى استيائها أن طبايع رامى كانت واضحة ، من قبل أن
يتقدم لخطبة هناء . ينهرها لأقل سبب ، ويشتمها ملا سبب . تنقل عنه ما
يصايقها من كلمات وتصرفاته ، لكنها لا تحاول التطلع إلى ما وراء الأفق .

احتدم الانفعال فى عينيها بنظرة غاصبة

- أنت تكرهينه ؟

جمدت نجاة فى مكابها

أنا أحبك .

إذن ، لا تثيرى المشكلات فى حياتى .

ورمقتها بنظرة رافضة

- هل أطلب الطلاق كي أريحك ؟

هين قدمت إلى الإسكندرية من دمنهور للمرة الأولى ، لم تكن عندها قد
شاهدنا البحر . جلسا على كرسي مواجه لأفق المينا الشرقية .
الوقت ليل الجو يعبق رائحة خريفية . الظلمة عمت أفق البحر ، لا
نهاية ، لا مرئيات . القمر يريق ضوءه الشاحب على المكعبات الإسمنتية ،
وعلى الموج الساكن إلا من مد يلامس - بالكاد - رمال الشاطئ ، وخطوات
عسكري السو حل بطيئة ، متعاقلة ، ونطراته شاردة ، وبنديته معلقة على
كتفه .

يتر مى وشيش الموج فى تلاحق رتيب ، وثمة أضواء قليلة تنبعث من
القوارب المترقصة فى مواضعها المتناثرة فى مصف دائرة المينا الشرقية .
أعمدة الإنارة تريق صوفاً خافتاً على الطريق ، الناس أشباح لتعوا على
أردية داكنة تبين الظلمة الشاحبة عن اللسان الطويل المعتد من أقصى
اليمين إلى مدخل لبوغاز . من بعد ، تترامى الألعاب النارية والصواريخ
وأصوات لفرقعات فى تيرى السلسلة . من الخلف ، الدرجات العريضة
المفضية إلى نصب الجندي المجهول ، يحيطها - بالرهبة - تداخل الألوان
والظلال ، وثمة عمال ينقلون ربطات الصحف من عربة مكشوفة إلى الطاولة
لرخمية على باب قهوة الإسعاف . وكناس - إلى جانب الرصيف - يريح
القمامة بالمقشة الهائلة .

أول ما حرص عليه - حين استقر فى عمله بالمكتب الإقليمي لمنظمة
الصحة العالمية - أن يستنحر شقة تطل على البحر ، الإسكندرية هى البحر

استأخر الشقة في العام الأول لشبيد البداية . اجتنبه واجهدها المطلة على
لبحر بشرعاتها الواسعة ، وبوافدها العالية
كان صف البنائات المقاتلة للبحر قد اكتمل بعد بناء الكوريش ، ربما
عشرة أعوام ، أو خمسة عشر عاماً . قدم مئات الأسر من داخل
المدينة مدل الكوريش صورة الحياة ، شكل حاجزاً أمام تدفّاع
لأمواج .

تخرجت في داخلها . في الليلة الأولى لعوبتها إلى البيت . مشعر الفقد
والحزن والوحدة والعزلة . غاب الروح ، والصديق ، والطل الذي كانت تصمّن
إليه . تمت - رعم فارق السن بينهما - أن يكون يومها قبل يومه ، لكنه
خذلها . رحل قبل أن تدبر كيف تواجه الأيام المقبلة .
أحربها الشعور أنها لم تعد من العالم حولها ، أو أن هده ورأى
يحرصان على إذكاء هذا الشعور في نفسها .
أحسّت أنها تعاني الوحدة أكثر من أي وقت مضى .

أمصت فاطمة الليل في بيتها ، تعيد ترتيب الأمور ، وتعود . برودة لبحر
القادمة من الباعدة تدعو إلى إغلاقها . لكنها تعمدت أن تدفع الصفيين إلى
بهايتهم . يؤسها صوت ارتطم الأمواج بمصدات الشاطئ ، وأصوات
لطريق ، وأضأت الشقة كلها .

آخر يوم له في المنظمة ، صرف سائق السيارة فصل أن يمضي إلى
البيت على قدميه ، يسار طريق الكوريش . علق حاكّت لدلة الكتانية
السواء بهامه المستند إلى كفه ، واحتفى من حرارة الشمس دلتندات
للملاصقة في امتداد الطريق . يحرص على ارتداء الدلة الكاملة في كل
لأوقات ، لا يفرق بين الليل والنهار ، ولا بين الشتاء والصيف ، البدة لكاملة
شرط الأنفة التي يحرص عليها .

تشاعل بالتطوع إلى الألق المتكسر ، والحرارة المتصاعدة فوق المياه
بتموجات مرتعشة ، وطيران النورس في امتداد الساحل ، واختلاط رحام
المارة والسيارات .

اعتذر عن عدم إقامة حفل عند ميلاده ، إضاءة الشموع ، ونقطيع
الثورثة، والتعني بعام حديد ، سعيد . ذلك اعتراف بأنه أحيل إلى المعاش ،
وهو ما لم يحدث ، سيظل في عمله ، وإن استبدلت المنظمة براتبه مكافأة
شهرية .

تردد - في الأيام التالية - على قهوة فاروق ، على ناصية شارع محمد
كريم . جلس أصدقاء قدامى ، وآخرين كان أول لقاءاتهم في القهوة



لها شعور من أطفأ نور ، وتهيأ للنوم .

قالت فاطمة

- فى عمرى محتاج إلى أدوية معويات .

قالت ،

- الأنوية قد تخفف الآلام لكنها لا تطيل العمر .

أضاعت نور تعبر فى ملامحها ، أو نبرة صوتها

للعمر نهاية تأتى فى موعدها !

عرفت من المسافة القصيرة - فى موازاة الكورنيش - من ميدان المشية إلى البيت المطل على يسار الميناء الشرقية ، أنها كانت تستطيع التوجه من بيت هند إلى بيتها . لم تكن تدرك قصر المسافة ، المرات القليلة التى تنقلت فيها بين البيت وأماكن فى الإسكندرية ، صحبها محرم ، حرص ألا يتركها لنفسها ، حتى فى نزولها للبيع والشراء من حلقة السمك ، وشارع الميدان القريب ، أو للتمشية على شاطئ البحر إلى قلعة قايتباي ، أو سراي رأس التين ، كان يحرص على مراقبتها .

رافقت - فى أوقات متباعدة - لزيارة المكتبات وصلالات الفن والمتاحف ،

والتردد على المسارح والسينما والحفلات الموسيقية

أحر ما شاهدها ثيأترو المسيرى ، فى الأرض الخلاء الملاصقة لمبنى

لمحكمة الوصية ، تتابعت الأعيان والرقصات وألعاب الحاوى والمهرج

والفتاة الكهربائية ، وإن غالبت النوبت ، حتى عزف السلام الوطنى

لصعب بصره - في الأعوام الأخيرة - أسقط تلك الزيارات من حياته
حياتها .

يستعيد ما شاهده من حفلات الموسيقى والأوبرا ومعارض الفن . عوالم
من السحر ، كان حريصاً أن تراقبه إليها قد يتردد على العطارين ، ينتقل
بين محال الكتب والتحف القديمة ، يكتفى - غالباً - بالتقليب والتأمل ، لطول
تردده على العطارين ، صار يعتز بإجادة قراءته للوحات الفنية ، وبخبرته في
اقتناء الأشياء الثمينة .

عمقت حكياته من ميلها إلى البقاء في البيت . تمتع لو أنها رافقته في
النزول إلى السوق ، الحياة على طبيعتها . البيع والشراء ولعصا ، لا تقيد
بالشروط ، ولا المعاني التي يغطيها الشجوب .

تعلمت فيه الكثير . وعرفت ما كان ينبغي أن تعرفه - اطعمت إلى أنه
يعرف جيداً كيف تسير الأمور خارج البيت .

لما أبدت رغبة في حضور دروس إمام جامع على تمارز ، دله محرم على
الشوارع التي لا تنحرف عنها .

تمشى في طريق الكورنيش إلى شارع تميز ناهيته بالمقهى الكبير ،
وارب أنوبه ، واكتفى الرواد بالجنوس داخله .

تميل في الشارع ، تتساطأ أمام قهوة فاروق ، تحاول - من حكايات
محرم - تتين الموضع الذي يختار الجلوس فيه . تتأمل الأبواب ، والنوخذ
لزعاجية العريضة ، والكراسي المتقاتلة حول الطاولات الرخامية ، والتاج
لمكي يعلو الواحة ، و البصة المحملة بالعلاية ، والبردت المعدنية ،
وأكواب الماء والشاي ، والكنكات ، ومباحين القهوة . والطاقاطيق الصغيرة
دات الأرجل الثلاثة ، والرواد المتناثرين ، والعداءات ، والمناقشات ، ونحن
الدرجيات يصفى ضبابية على لقاعة الواسعة .

ابتسم لملاحظتها إن كان يتعاطى الشيشة . قال إن الكلام هو صلته
بجلساء القهوة ، لا يضيف إليه سوى شرب القهوة ، لا نرجيلة ، ولا ألعاب
كوتشبية ، أو طاولة ، أو دومينو . يأخذ في الكلام ويعطى ، أفاق الحوار
ممتدة .

تعبّر قضبان النترام وسط شارع محمد كريم ، تواصل السير حتى تصل
إلى مفارق وتقاطعات .

يطالعهما الجامع في موضعه المطل على ميدان صغير ، تنفرع منه
شوارع متجاورة ، ومتقابلة ، لا تعرف إلى أين تعضى

تصعد الدرجات الرخامية إلى صحن الجامع ، تصلى في الركن ، إلى
جانب الباب لمغلق - ركعتي تحية الجامع ، تقرئ ولي الله السلام ، وتتلو
الفاتحة ، تدور حول المقام ذي الكسوة الخضراء ، والأعمدة النحاسية ،
وشفتاه تتمتمر بتلاوات وأدعية

تندس في نصف حلقة النسوة حول الإمام ، تستمع إلى دروسه ، ربما
شاركت بسؤال أو ملاحظة . تعود - بعد انتهاء الدرس - من الطريق نفسها .
سألت عن الصلاة هل يلزمها تقدم العمر بزيادة عدد الركعات ؟ هل
تضيف إلى صوم الاثنين يوم الخميس ؟

قال الإمام

- العبداء مستحبة في كل الأوقات -

قبل أن تصحب هناء ورامى إلى شقتهما المظلة على شارع خفي ،
اطمأنت إلى إضاءة حجرات المشقة - حتى الأليكات والأباجورات في أركان
الغرف ، أضاعتها ، تعرف أن روح الميت تظل في المكان أربعين يوماً ، تكفي
الجسد ظلمة القبر - حرصت أن تطل ثيابه على حالها داخل النولاب ،
رفعت حتى أن تستجيب لإلحاح هناء ، فتعطى رباطات العنق إلى رمي -

تركت متعلقاته الشخصية فى موضعها فوق الكومودينو ساعة اليد
والنظارة الطبية وشرائط النواء والنوتة الصغيرة والقلم .

سيطر عليها شعور بأنها وحيدة فى الدنيا .

لم يعد يربطها بالعالم من حولها سوى الذكريات ، صورة محرم تملأ
عينها ، فلا ترى غيره ، تشعر - رغم قنات زمن الإضاءة - أنها تنفَس
الهواء الذى كان يتنفسه ، تتشمم رائحة عرقه ، فى ملابس المعلقة داخل
الدولاب ، تستعيد ملامحه ونبرات صوته وإيماءاته وتصرفاته ، فى جلستهما
الليلية - المتساعدة - على المقعد الرخامى المواجه للكورنيش ، وقفته وراء
النافذة المطلة على البحر ، جلسته وهو يقرأ ، وأمام التليفزيون ، انحناء
رأسه وهو يحسب النشأى ، إدارته مؤشراً الراديو يبحث عن أخبار البى بى
سى ، أو مباريات كرة القدم فى إذاعة الشباب والرياضة .

رغم أعدت تقليب ألبومات الصور ، أو قراءة رسائلها إليه من ممنهور
محرم يرتدى الروب الجامعى .. محرم يصنع السلسلة الذهبية فى عتق نجاة
.. محرم - فى صورة جماعية وسط موظفى مكتب منظمة الصحة العالمية ..
محرم ونجاة يقفان أمام باب مسجد المرسى أبو العباس .. هناك الطفلة تبنى
بيتاً من رمال البحر .. هناك ترتدى الكعب العالى بفرحة المرة الأولى ، هناك
ورامى بملابس الزفاف .. باسم يدلى ساقيه من فوق كتفى محرم ، باسم
يبتسم للعدسة فى وقفته على رمال البحر ويبيده دلو وجاروف ، أفق البحر -
حلف باسم - فى اعتلائه الكورنيش الحجرى ، حبيبتي نجاة . احرصي
على زيارة أمى .. تسلمنى منها رسائلى إليك .. عزيزى محرم بك .. حبيبى
محرم ، شوقى إليك بطول المسافة من ممنهور إلى الإسكندرية .. أشكرك
على هديتك الثالية .. ننتظر قنومك فى إجازة المولد النبوى .. حبى أكثر من
البحار والمحيطات .. يهصر أبى أن يتلجل زواجاً إلى ما بعد بسوغى

الخامسة عشرة .. أقسم لك بمقام سيدي أبو الريش أنني أكتب هذه

الرسائل ، لا أملها على أحد ..

هلا حاجبا رامي الكثيفان بالدهشة

- هل كان مسموحاً بالمصارحة في زمانكم ؟

قالت :

- رسائل بنت في الخامسة عشرة من عمرها .

وتهدج صوتها بالارتباك :

- لكي أبلغ سن الزواج ، قام الطبيب بتسنيئي !

انقضت متبهة ، اتسعت عيناها بالذعر

- هذه الرسائل ؟

في لهجة مدافعة

- يبدو أنك نسيتها على المكتب .

- كانت داخل صندوق .

لما أخذت الرسائل من الدرج الأيسر العلوي في مكتب محرم ، اطعمت

إلى موضعها داخل الصندوق الخشبي ، المطعم بالصدف . استندلتها بما

كان في داخل الصندوق من الحلوى . في اليوم الثالث لعقد قرانهما ، عاد إلى

الإسكندرية . لم تنقطع رسائلها إليه ، ولا رسائله إليها . تكلم في تفصيلات

حياته اليومية ، ويكلمها عن أحوال الوظيفة ربما استعادا ما كان ،

وناقشا تصورات .

أظهر رامي التأسف :

- لم أعرف أن قراعتها تصابيك .

اهتز جسدها بالانفعال

- ما فعلته سحف ، النيش في ما لا يخصك سحف .

أعادت - بعيني رامى - قراءة الرسائل المودعة فى الصندوق الخشبي الصغير . هل عرف ما لم يكن ينبغى أن يعرفه ؟

أطالت تأمل كلمات محرم - " يؤلمنى تذكير أبيك لى بفارق السن بينى وبينك " .. " العيبان الساحرتان بوصلة طريقى إلى حارة الزرقا . أحترق الشوارع فى الإسكندرية وبمنهور ، تجتذبني الوصلة التي كانها ثبتت فى داخلى ، لا يشغلنى فارق السن بقدر ما يشغلى السؤال هل تبادليسى مشاعري ؟ " .. " حين أعلنت أُمى رغبتها فى عدم ترك بيتنا بحارة الزرقا ، لم أكلعها عن الرغبة نفسها فى داخلى . بدت أسرتك مطمئنة إلى العيش فى بيت العائلة - كنت حريصاً أن أظل بالقرب منك " .

شاهدت الإسكندرية فى أوقات رقتها لمحرم ، قارنت بين ما شاهدته ، وما رسمه خيالها مما كان أبوها يرويه عقب زيارته إلى المدينة .

لم يكر يشغلها التقدم فى العمر ، ولا النهاية التى ستلتقى بها فى لحظة ما . راعها الإحساس الذى سيطر على محرم - فى أيامه الأخيرة - بذنو حياته من نهايتها ، وأن الموت يقف على الباب ، أو أنه يلاحقه كطيه . استقر فى داخلها ما يشبه اليقين أنه سيعيش عمراً أطول من عمرها . كانت زيارته للأطباء متعادة . ولم يكن فى تصرفاته ولا حالته الصحية ما يشى بالقلق .

نضح صوته بالأسى :

- أنا مستشار فى منظمة الصحة العالمية ، لكننى أحتاج إلى من أستشير فى صحتى .

واغتصب ابتسامة .

- عندما أذهب لا تتأخرى فى اللحاق بى .

وأغمض عينيه .

• سأفتقدك !

وضعت أصابعها على شفتيه

- لا تتكلم عن فقد ، ستظل حيا حتى تزوج أبناء باسم !

راويتها رغبة في أن تمسد شعره ، أو تربت كتفه ، أو تحيطه بساعديها ،
لتصرف بما يشعره أنها تحبه .

الوجه قمحي مستطيل . العينان ساجيتان ، مطمئتان ، وإن لاحظت
تراخي جفنيه ، وتضخم أنفه . الشفتان رقيقتان ، رقيقتان ، يميزه بروز
خفيف في أسنانه .

مال جسده - بتقدم السن - إلى الامتلاء والترهل ، وحركته إلى البطء ،
ومال طبعه إلى الهدوء . لا يشارك في مناقشات هباء ورامى ، إذ تكلم
اكتفى بكلمات مقتضبة .

يرتدى - في الشتاء - بيجامة من الصوف ، فوقها روب ، ويضع على
رأسه طاقية من القماش نفسه * يكتفى - في الصيف - بحلاب قصير
الكمين . إيماره الدائم شرائع الخير والجن والقهوة وعصير البرتقال .

ربما أسند ظهره إلى كرسي ، واستغرق في قراءة كتاب على ضوء
الاباحورة ، وثمة موسيقى هادئة تنتهى من موضع قريب . يحرص على
سماع الموسيقى العربية ، وإن أحب أم كلثوم وعبد الوهاب والأطرش
وليلي مراد ومحمد فوزى وعبد الحليم وشهرزاد ، والألحان الشرقية والشعبية
(يجد في سيد برويش أهم الموسيقيين الجدد) والمواويل والتواشيح
والابتهالات .

اطمأنت إلى تنفله المتباطئ من الحشرات ، ونظراته المتلفتة ، يبدو
مشغولاً بما لا تعرفه .

فاجأها بالقول :

- كيف يحدث الموت ؟

وهي تغالب التوتر .

- لم أتعرف إليه ، وإن تصورت أنه نفس يدخل ولا يخرج . هذا كل شيء !
همس كئنه يسأل نفسه :

- المشكلة أن الإنسان يموت وحده .. لا أحد يشاركه موته !
ورثا إليها بنظرة حزينة

- هل ينتهى كل شيء بالفعل ؟

- هذا ما أظنه ، مجرد نوم بلا صحو .

أصافت في صوت مشروخ

- الميت لا يحشى شيئاً ، لأنه ميت !

وشوحت بيدها :

- لم أعد أخاف الموت .. اعتدت صداقته .

- مهما صادق الإنسان فكرة الموت ، لا يستطيع تصور أنه سيموت !

وغلّب على نظراته شرود :

- مع ذلك ، فإن الموت حل للكثير من المشكلات !

أرهقتها فكرة أن يترك محرم البيت . تظل وحدها ، تعاني العزلة ،
والمخاوف ، والموت . لا تتصور أنهما يفترقان ، فلا تراه ، تحيا ما بقى من
لعمر . وحيدة - بين جدران الشقة .

لاحظت في نفسها ميلاً إلى كتم آرائها ، وتردداً بين اتخاذ القرار
وتنفيذه ، كمن تنتظر نصيحة محرم ، وما يجب عليها فعله . فطنت إلى أنها
تعتقد القدرة على التصرف هي المشكلات التي تواجهها ، وأنها لا تملك أن
تصل إلى رأى تدافع عنه ، لا تملك شجاعة اتخاذ القرار ، تسأل ، وتناقش
الملاحظات ، يطول تقليبها لها ، تتردد في اتخاذ قرار ما ، حتى تنسى ما
كان يشغلها .

في بدت المشكلات قريبة ، تتوقعها في كل وقت .

• تلاحظ ما يعانيه ، ما يكتمه في نفسه ، ولا يبوح به ، يغمض عينيه ،
يألمر ملامحه ، ويضغط على شفثيه لأسنانه . تعرف أنه يعاني مرضاً ،
وإن حاول إخفاء آلامه ، يتكلم عن النتيجة نون أن يشير إلى بواعثها .

• ما بك ؟

• لا شيء !

ويظل صامتاً .

عرفت - بعد رحيله - أنه كان يحمل سر الموت في داخله . لم يحاول أن
يشرك الطبيب في التعرف إليه . هو الموت ، وما يسرى في داخله نذره .
عليه أن يتحمل ، ويظل صامتاً . لم يحاول حتى أن يبذل شيئاً في مألوف
حياته . قرأ - لا يذكر أين - أن الطبيب قد يخفف الألم عن المريض ، لكنه لا
يقوى على دفع الموت .

عرفت أنه لم يكن يشغله إلا التوقع ، لا يرتبط بالوظيفة ، ولا السياسة ،
ولا الحياة خارج البيت ، ولا حتى مباريات كرة القدم التي يحبها ، رحيله ،
ومواجهتها ما لم يعدها لتوقعه .

تتشاعل بتأمل الصالة الواسعة ، تتوسطها - أمام المدخل - مائدة الطعام
مغطيت بمفرش من الحرير الملون ، وتوسطتها زهرية تدلت منها وردة ظلت
في موضعها حتى ذبلت ، تتقابل حولها ستة كراسي من الخشب المطعم
بالصدف . الجدار الأيسر الراصل بين باب الشقة والطريقة المفضية إليها
ملاء منظر طبيعي باتساع المساحة ، لقرص الشمس الأحمر يعطس في أفق
البحر ، إذا أهملت إعلاق باب الشقة ، صفقه الهواء القادم - عبر النافذة -
من البحر . المطبخ والحمام في الناحية اليسرى ، إلى جانبيهما نافذة

صغيرة تطل على المنور ، وسط الساية البوفيه الضخم بين الصالة وحجرة المكتب - إلى اليمين - يتوسطه تمثال - اقتناه محرم من تونس - لرجل عار ، إلا من هبطة تغطي ما تحت السرة ، جلس على مقعد لحمام الشعبي ، إلى الجانب جهاز تليفزيون ، تعلوه - على الحدار - صورة فوتوغرافية لوالد محرم ، يرتدى بالطول قصيراً ، فوق قفطان ينسدل إلى القدمين ، ويرتدى حذاء أحطسيه ، تدلت من السقف العالي شكمية من المعدن الأصفر المنقوش بزخارف نباتية . افترشت الأرض سجادة فارسية ، تناثرت في الأركان ماضد خشبية صغيرة ، فوقها فازات خرفية ، بدخلها ورود جامدة . حجرة النوم قبالة حجرة المكتب ، تلاصقها حجرة هناء وحجرة القعاد الصغيرة - تحولت إلى ما يشبه الكرنج - لها نافذة صغيرة يهبها الهواء والضوء ، مساحة فراع صغيرة بين البيت والبيت المجاور .

كان يجلس إلى مائدة الطعام ، أمامه ملفات وأوراق ، يحلو - معظم وقته في البيت - لمراجعة أوراق العمل ، أو لقراءة الصحف والمكتب ، يصرى - بقلم الرصاص - تحت الكلمات التي تستوقفه .

يفض الكتابة والقراءة على المائدة ، والنظرة - من موضعه - إلى أفق البحر ، كتنفي في حجرة المكتب برص الكتب على الأرفف ، وموق المكتب ذي الطرار العتيق ، لا يتردد عليها إلا ليودع ملفات أو كتيباً ، ويأخذ أخرى .
تكتفي بمراقبته .

قد بعيد رواية حادثته ، أو خبر سياسي ، أو مقرة من تعليق ، أو يلخص كتاباً أعجبه . يكلمها عن أشياء لم تعرفها من قبل ، في التاريخ والسياسة والبلاد وكرة القدم ، يعلق على قراءاته ، ومشاهداته ، وما يستمع إليه .

بشاركها أفكاره . ربما ذكر إحصاءات مما تتناوله منظمة الصحة العالمية
في تقاريرها ، تهز رأسها دلالة المتابعة ، أو تسأل ، أو تستوضح ما غمض
هنا .

تبدى تنثرها لكثرة الأمراض ، وارتفاع أرقام الإحصاءات والبيانات ،
وتفشى الأوبئة في البلدان الفقيرة .

تتناثر في كلماته مفردات السجائر ، الصرف الصحي ، المياه الملوثة ،
المخدرات ، العادم ، النفايات ، مخلفات المصانع ، المبيدات الحشرية ،
الأمراض المتوطنة . تأتي المفردات في سياق أحاديث ، تحدد ما يشغله .

أشد ما يعتز به ، أنه - أول إقامته في البيت - دمع مكتب منظمة الصحة
العالمية إلى طب تحويل مواسير المجارى ، فلا تقذف ما بها في المين
الشرقية .

قال في لهجة معتبرة

- كنت سأفعل الشيء نفسه لو لم أسكن أمام البحر ،

ربما نشعل بالقراءة ، وكتابة التقارير ، بينما اكبت هي على أشغال
الإبرة - أجادا - لطول العشرة - أن يتصل كل منهما بالآخر دون كلمات .
تتخلل الحسة الصامتة ملاحظات سريعة ، يعود كل منهما - بعدها - إلى ما
بين يديه .

إن عانت أرقاً ، أشار عليها بصحبة كتاب - يذكر عنوانه - من أرفف
مكتنته

- ستجدين فيه ما يستحق القراءة .

اختلف في مشاعرها الخوف والقلق والإنشفاق والتعاطف والمشاركة ،
وهو يعاني زحام لوقت في اشغاله بتفشى وباء الحمى العلاجية

بدا مهموماً بما لم تعهده من قبل ، يقضى معظم النهار فى المكتب ، يطيل الاتصالات التليفونية بمن داخل مصر وخارجها ، يسجل الملاحظات ، يكتب المذكرات والتقارير ، يحدثها - بعبارات مقتضبة - عن خطورة المرض ، وعن الآثار التى يمكن أن يحدثها لو لم يتم تداركه .

عاد إلى جلسته المتجهة ناحية الأفق .

عرفت أن ما كان يشغله لم يعد كذلك .

قالت :

- هل انتهى الأمر ؟

قال :

- ما جرى فصل من الصراع بين مربى الماشية ومربى الدواجن .

ثم وهو يقر بالقلم على زجاج المائدة

- انتصر مربو الدواجن هذه المرة ، لكن التنبؤ صعب بمن يفوز فى

ال الجولة القادمة !

ارتفع حائباها بالاستغراب :

- هل كان المرض ..

قاطعها :

هناك مرض .. لكنه لم يبلغ حد الوباء . تكفلت الشائعات بتضخيم

الأمور ..

بعد زمن ترده الدائم على المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية

محطة الرمل ، وظيفة المستشار الإدارى قصرت علاقته على الأوراق ،

يراجعها ، ويبدى رأى ، يصحح ويضام بلا موعد . يرافق شرب القهوة

بقراءة الصحف . تتابع تنقل عينيه بين عناوين الصفحة الأولى

والصفحات الداخلية ، يتوقف أمام صفحة الوفيات ، يطيل وقت القراءة
يحل الكلمات المتقاطعة ، ما يصله من الفرع يراجعه ، ويؤشر ، ويبدى
الملاحظات ، حتى يزهى ، أو يدرك التعب ، قد يستعيد مشواره الأسبوعي ،
القديم ، إلى دمنهور .

يخرج من مكتب المنظمة بعد الظهر ، يخترق ميدان محطة الرمل
إلى شارع صفية زغلول ، يتناول طعاماً خفيفاً فى إيليت ، ثم يمضى
إلى محطة السكة الحديد . يهبط فى محطة دمنهور قبل أن يحل
المساء .

لا يذكر متى فطن إلى وجودها فى حياته ، اللحظة التى استعاد فيها
النظرة إلى وقتها وراء النافذة الجسد الفائر ، البشرة البيصاء ، العينين
اللوزيتين ، الواسعتين ، هالة الشعر الأسود ، السام ، حول وجهها .
تكررت لقاءاتهما - بالأعين - من خلف النافذتين .

لم يخف أبوها غضبه

- هل أخرجها - وأنا المعتش بوراة المعارف العمومية - من المدرسة

للتزوج ؟ هل أزوجها من رجل فى عمرى ١٩ .

خشى أن يكون فارق السن حافة ، تبتلعه هاويتها إن حاول القفز فيها ،
لا يكون مجرد عقبة ، يحاول تخطيها .

روى عن تحريضه لأمه ، كى تعبر الحارة إلى البيت المقابل . تجالس أم
نجاه ، تخوضان فى أحاديث لا آفاق لها ، وإن لومأت أمه بكلمات محسوبة
إلى خطوة يثربها .

كاد - فى لحظة - أن يرجئ الفكرة ، يترث فى أمر زواجه من أية فتاة ،
وليس نجاه وحدها .

قالت

- نسيت بحملى فى ههنا شرط أبى أن أوصل الدراسة .

يعبر ميدان المحطة إلى شارع ، لصاعة . يخف وراءه قهوة المسيرى
وحامع الرواوى والشوارع المتقاطعة و المتوارية
خطواته أقرب إلى الهرولة ، كئى قدميه تعرفن طريقهما يجتنبه إلى
سجاة جمال طبيعى ، بلا صنعة . يترك قول العاصى عن يمينه ، إلى
داخل حارة الرقا الترسية الصيقة ، يرافقه الأمل فى عودة لرحل عن
رفضه .

يحاذر البرك لطبيبة المتقية من مياه العسرين ، ويكتم تنفسه عن رائحة
بقايا الطبخ والنسك والبرار وروث البهائم .

البيتان المتقيدان يتشب بهان فى الطوابق الثلاثة ، و لبواقد ، والباب
الخشبي فوق درجتين من الإسمنت .

يرقى السلم الحالى من الدرابزين .

يلتفت - بتلقائية - إلى الحوش فى سفل - تعيب نظرتة فى الضلمة
لشعيفة . يختار موضعاً بعيداً عن النافذة المواجهة ، المفتوحة ، فلا تعصب
أمه إن عرعت زيارته ليت الحيرن قبل أن تراه .

تباعدت - بوجه أمه - زياراته ، زياراتهما ، إلى دمهور ، يحرصان على
لعودة إلى ، لإسكندرية فى بهار ليوم نفسه .

ربما تمشتى داخل الشقة دليجاً والشبشب ، مال إلى الانحداء ،
خطواته بطيئة ، تبين عن صعوبة قدرته على لسير تكررت شكوه من أن
قدميه لا تساعدانه ، ومن ضعف ، لذاكرة ، وكثرة لنسيان ، وعدم ، استجابة
قواه ، وانهزمه أمام التقدم فى السن . يشكو من لهجان لأقل مجهود

(الطوية تريد من إحساسه بالإرهاق) ، يمتلكه الضعف فلا يستطيع النهوض ، يسند ركبتيه إلى راحتي يده ، حتى يعبر طوله . قد يطيل التوقف في مكانه ، حتى يستعد تمسك حسده من تأثير بوحه تفاحته . تجذبه نجاة من يده ، أو يستند إلى الجدار ، أو قطع الأثاث . يعبرن طريق الكورنيش لشمسية إلى أول السلسلة ، أو - من ناحية المقابلة - إلى قبة قايتباي وسراي رأس التين .

يجلس على المقعد الرخامي في مواجهة البيت . يختاران هذا المقعد من بين المقاعد الرخامية الأخرى على طول طريق لكورنيش . جلسا عليه ليلة قنومها - للمرة الأولى من دمنهور .

صار المقعد مكاناً لحسنتهم الليلية - هي أوقات متاعدة - أشهر الصيف . يطيل التوقف ، تتوزع نظراته بين الاتحامين ، حتى يطمئن إلى هدوء حركة المرور تماماً ، أو توقفها ، فيعبر .

أُحسّت النحر منذ رأته للمرة الأولى ، احتذبتها ورقة السماء ، المتداخلة في أفق المياه ، وتكسرات الأموج ، والقوارب المتناثرة ، وأسراب الطير . تناهت أهة ناكم وهي مستلقية فوق السرير . كانت تقرأ كتاباً ، سحبته بالمصادفة - من مكتبة محرم ، التليفزيون في ركن الحجرة ينث لقرات إعلانية ، ونور الأباجرة المثبتة على حامل يحتلظ بضوء النهار المسحب .

تجمدت - بالذهول - لرؤية تقلص ملامحه ، وتوسع عينيه وغمه ، واصطبغ بشرته حمرة داكنة ، ويده تحيط بعنقه كأنه يخفق نفسه . قاومت ارتناكها وهي تنظر إلى عينيه المفتوحتين ، هل تغمصهما ؟ أنركت أنها لابد أن تفعل ذلك .

مدت أصابعها بجرأة ، لا تدري كيف انتهت .



التقطت نظرة باسم بارتجافة يدها للمعبودة بكوب الشاي .

- ملأت الكوب . أحشى أن يندلق على الأرض !

وهو يحرق في عينيها

- هل أنت مريضة ؟

قالت :

- لا تجعل من العمة قبة !

افترشت وجهه بسمة إشفاق :

- نحن لا نستطيع أن نهرب من هذا العالم .. علينا أن نتعايش معه ..

ما أعرفه أن حالتنا النفسية تنعكس على تصرفاتنا .. مهما تضخمت

المشكلة هناك أمل . المشكلات التي يصعب حلها ، علينا أن نتركها للطروف

.. لا محطقات بصمن طهارتها سوى الملائكة .. ما دمنا نحيا ، فلا بد أن

لواصل حياتنا .. لا شيء يطل على حاله ..

ظلت تصفى لتعبيراته السريعة ، المتلاحقة ، المفعمة بالتشبيهات

والكتايات ، المعانى التي لم تخطر في بالها ، ما لم تتصور أنه يحيد حفظها ،

أو تسعفه البديهة بتلاحقها .

قلبت الكلمات في رأسها ، تأملتها . هو باسم آخر تتعرف إليه - ربما -

للمرة الأولى ، يختلف عن باسم الذي كلنت تروى له الحوادث ، يطالبها أن

تظل إلى جانبه حتى ينام .

شعرت أنه قريب منها ، كما لم يحدث من قبل .
تميز عن أبويه بأسنانه المفلوجة ، وإن وورث عن أمه عيبها العسلتين
لواسعتين ، وشعرها الأسود الغزير ، وشفتيها المكتنرتين ، وورث عن أبيه
أنفه الضخم ، وقامت الطويلة ، وكثفيه العريضتين ، وبشرته الأقرب إلى
السمره .

اكتفت بنظرة متأمله ، ثم قالت فى نبرة هابئة
- أعرف هذا .

كيف لإنسان مات من كان يشاركه حياته ، أن يواصل - بمفرده - هذه
لحياة ؟

كتمت تأثرها لقول رامى . أنت تخافين الإقامة فى الشقة بمفردك .
وتخافين النزول من البيت ، وتخافين التعامل مع الناس حتى الشعور
بالحاجة إلى شخص يرعانا هو شعور بالخوف !
لا تذكر المناسبة التي كان فيها باب الشقة مفتوحاً ، وهى تهتم بعلاقه ،
اصطدمت نظرتها بعيني الجار فى الشقة الملاصقة .

ارتبكت لإيمانه المحيية ، هل تردنا إليه ؟
حدثنا محرم عن جلساتهما إلى طاولة واحدة فى قهوة فاروق ، جوار
الباب المطل على شارع محمد كريم .
قل نزول محرم بعد المعاش ، ثم لزم البيت .
ظلت على ارتباكها وحيرتها ، حتى ثوماً الجار مستائداً ، وأعق الباب
وراءه .

الشعور الثقيل بالوحدة ، لم يدفعها إلى الاختلاط . تملكها الحيرة ، لا
تدرى ماذا تصنع بنفسها . لم تبدأ التحية ، ولا تأملت ، أو أطالت النظر .
اكتفت بالظرات العابرة والحيانية .

تلتقى بالجيران ، أو من يقصدونهم ، فى صعوهم ، ونزولهم ، على السلم الرخامى . قد تتعرف إلى الملامح ، لكنها لا تعرف إن كان الشخص من سكان العمارة ، أم من الطارئين عليها ؟

ترد على لتحية بكلمات مدغمة ، أو بهزة رأس .

تبينت أنها لم تعد تستطيع إقامة علاقة تذيب شعورها بالوحدة . طالت العشرة ، فلم تتصور أن حياتها تخلو من محرم . يغيب الانتظار والشوق والقلق واللهفة والراحة والفهم والامتنان والاطمئنان والاستغراق والمؤانسة والبوح والهمس بالسر والأسئلة والإيماءات المتواطئة والحب والمداعبة والفرحة وتقاسم اللقمة والمشاهدة والنظر إلى أفق البحر .

حين عرضت أن تصحبه إلى السوق ، احتواها بنظرة مشفقة

« لن ينقصك شيء ، كل ما تحتاجينه سأحضره بنفسى ، أو أكلف أحد السعاة .

وأشار بيده ناحية النافذة .

— زحام الإسكندرية يختلف عن هدوء ممنهور !

قالت فاطمة :

— أراد محرم أن يريحنى ، فحدث العكس !

قالت فاطمة :

— حب الأستاذ محرم لك مضرب الأمثال .

وهى تعمص عينيها

— لو أنه ساعدنى على التعرف إلى الدنيا خارج البيت !

لا تذكر المناسبة ، لكنها أصررت على العودة إلى ممنهور .

اتجه إليها سطرة مشفقة

- لا بُدَّ من عودتك ، لكن هل تعرفين الطريق ؟
غلبها الارتباك .

الدنيا خارج البيت تبدو غامضة . ما لم تكن في صحة محرم . يصعب
عليها السير والفرجة والتأمل .
في دهشة .

- توصلنى إلى بيت أبى ، أو إلى محطة الأوتوبيس .
اتسعت الانتسامة المشعقة ، فعلأت وجهه
- هل أترك جزءاً من نفسى يتفصل عنها ؟

فهمت لمعنى ، حركت شفتيها كمن تعد نفسها للكلام ، لكنها ظلت
صامتة .

وصعت ما لم يطلبه الفرع من أوراقه فى المكتبة ، وأغلقت عليها . ستة
أرّقف من خشب الزان ، مغلقة ، بعرض متر وارتفاع يقرب من المترين .
عنى محرم بصف الكتب هى داخلها بما يسهل البحث عن الكتاب الذى
يريده . قصرت جلوسها على الصلاة ، ونومها على حجرة هناء - هذا هو
الاسم الذى اعتادت أن تسميها به - تركت لعاطمة تنظيف حجرة النوم ،
وترتيبها ، تعلقها فلا يدخلها أحد .

تبينت حلول حياتها من الأصدقاء . زملاء محرم فى العمل يزورونه برفقة
لروحات ، محرم هو الذى يعرف عناوين البيوت ، ويسجل أرقام لتليفونات .
يكرر اعتذاره بأن انشغاله فى المكتب والبيت لا يتيح له حياة اجتماعية
صحيحة .

لم يترك فى حياتها صداقات حميمة ، ولا أماكن كثيرة تستعيد لها الذاكرة .
كلمها - فى اليوم الثانى - عن اختلاف الظروف بين دمنهور والإسكندرية

وهذا أن يأتى لها بما تريده ، أو تنادى على جودة البواب ، فهذا عمله .
حملت فى العام الأول لزوجها . انشغلت بما فى بطنها ، وبهنا بعد
الولادة ، تناست ما وعدا به محرم أن يتيح لها الحصول على التوجيهية أو
الثقة العامة .

١ تفلق عليها باب الشقة ، لا تزور ولا تزار . فاطمة - وحدها - تتردد على
الثقة مرة كل أسبوع ، تغسل الثياب ، وتساعد في ترتيب البيت .
يعضها إحساس أن الناس - حتى القريبين منها - ليسوا بحاجة إليها .
تسلم نفسها إلى شرود ، لا تتابع أحاديث هناء ورامى عن بوالص التصدير
والاستيراد وأيونات التخليص وأسعار العملات وفوائد البنوك وشهادات
الاستثمار والمضاربات وشركات توظيف الأموال وضريبة المبيعات
والإكراميات وغلاء أسعار الشقق .

تنبذ إلى أنها تسير فى الشقة ، بلا سبب ، ولا اتجاه تمضى إليه .
ربما تبين أنها ظلت فى جلستها المطلة على البحر ، صامتة ، لا تفكر
فى شيء محدد . قد تخترع جزراً تعيش فيها ، تنس إلى مخلوقاتها ،
بهرامى - فى جلستها وراء النافذة - صوت تكسر الأمواج على المصدات
الأسمنتية ، وصرخات النوارس فى امتداد الشاطئ . لا يبين سوى أمق
البحر ، وصوت الشمس ما بين طلوع الصبح إلى الغيب ، وتتناثر الجيوم حول
القمر فى ظلمة السماء ، ومضات القمار الدائرية ، المتوالية ، إلى ما وراء
البنائيات العالية ، وما بعد الأفق .

لا تذكر إن كانت قد لاحظت - قبل أن تعيش الوحدة - تصاعد الأصوات
من نافذة الطابق الثامى ، ضحكات نسائية وأغنيات وشتائم
قالت فاطمة لنظرة الاستياء فى عينيها

- الشقة يستأجرها الآن معروشة ناس من الخليج -

أصافت إنه لم يعد من مستأجرى الشقة سوى أصغر الأبناء ، هو الآن فى حوالى الخامسة والخمسين ، تقاعد بمعاش مبكر ، وانتقل إلى الإبر هيمية مع ابنته التى لم تنجب من زوجها . سكان الشقة الأولى فى الطابق الأول أسرة قبطية ، مات الزوج ، تقصى الزوجة شيخوختها مع ابنتها وزوجها وحفيدين فى المرحلة الثانوية . سكان الشقة الثانية فى الطابق نفسه ، أبوان وثلاثة أبناء يعملون فى مشروع تجارى ، ينتقلون له بين الإسكندرية ومدن أخرى فى مصر وخارج البلاد . الطابق الثانى يتجاوز فيه أسرتان نتاحر فى شارع الميدان ورث عن أبيه الشقة والتجارة ، وصابط شرطة فى مصلحة الجوازات والجنسية ، استأجر الشقة بعد أن هجرها من ثقى من السكان ، الحار فى الشقة المجاورة روج أبناءه ويقيم مع زوجته المريضة بالقلب ، لا تغادر الشقة إلا للطبيب . الشقة الفوقية ألقها سكانها على الفراغ ، بعد أن تناقصوا بالموت ، وبالسفر الشقة الأخيرة . أمام سلم السطح - ذات مساحة أصغر ، جعلها صاحب البيت مكتباً يحتفظ فيه بفرار وكالته بشارع فرنسا

ولونت فاطمة صوتها :

- جيرانك ناس طيبون !

لم يعد فى حياتها ما يثير الأسئلة ، لا شيء يستغف تأملها ، راوغها اختلاط الأشياء بما يصعب تفسيره . غابت الفوارق بين ما هو حقيقى ، وما تسلسل إلى حياتها .

تمت الموت وهى مائنة ، تمام فلا تصحو . رافقها التوقع - وهى تسلم حسدها - كل مساء - إلى الفراش ، أن تستيقظ فلا تجد نفسها ، تجدها مينة !

تعالى رنين الثيفون ، فتنبّهت إلى وجوده . كانت قد نسيتّه تماماً . كاد
استعماله يقتصر على محرم ، يدير القرص ، ويتلقى المكالمات .
لاحظت ارتعاشة في يدها ، وهي تدنى السماعه من أذنها
- من ؟

قالت لنفسها : باسم .

توقعت أن يكون هو ، تقاسمه العراش منذ طفولته . يطلب منها أن تطل
إلى جواره ، تروي له الحكايات السندباد البحري ، والشاطر حسن ، وست
الحسن والجمال ، والسفيرة عزيزة ، وكان يا ما كان ، في سلف العصر
والأوان .. يا ست يا ستنا ، ياللي قصرك أعلى من قصرنا ، ما عندكيش
هنقود عنب ، للعليل اللي عنينا .. مال سمانك كبرت كده ليه يا جدتي ؟ ،
هشان أكلك بيهم .. يا مير يا بير ، انيهم صراصير كثير . الساعة دقت
انتاشسر ، لازم أرجع البيت .. اعتح يا سمسم .. دي سكة السلامة ، ودي
سكة الدامة ، ودي سكة اللي يروح ولا يرجعش .. سلّو طلدا ما فيش عارب
يعيش .. عاشوا في تبات وبات ، وخلفوا صبيان وبات .. هكايات
مستعيدها ، يستعيدها ، تضيف ، وتحذف ، بما تلمحه في عينيه من أمرات
الإعجاب أو الخوف .

تعرف من صوت تنفسه الهادي أنه قد استغرق في النوم . تنزل من
السرير بجانب جسدها وهي تحاذر أن تصدر صوتاً . يصحو فينادي عليها ،
تحضه على تناول الطعام . الأولاد في سلك لابد أن يأكلوا جيداً .
الأشهر السبعة الأخيرة قاسمته هيها حجرته ، معمقت علاقتهما . لم تعد
تتصور الحياة بدونه . تدرك أن هذا هو تصوّره . هو أقربهم إليها ، تأخذ
منه وتعطى له ، يصارحها بما يكتمه عن هباء ورامى .

أهملت تحذيرات رامى بأن تمنعه من النوم إلى حبيبها

- أنت تفسدينه بهذا التدليل !

أهملت تحذيراتك بالا تعطى باسم من النقود ما قد لا يحتاج إليه ،
تعرضه على الإنفاق غير المحسوب .

قالت لهنا

- أتمنى أختاً لباسم .

قالت هناء

- رامى يرفض حتى تتحسن ظروفنا .

قالت مهونة :

- الطفل يولد ويرزقه معه .

- كنت تعترضين على رامى ؟!

نور أن يجاوز صوتها نبرته الهائلة

- ولازلت !

فى أول أيام باسم بكلية الهندسة ، قال له رامى

- إن أنهيت الدراسة بتقدير ممتاز .. سألزم الكلية بتعيينك معيداً ،

بداية الطريق هى التى شغلته ، وليست النهاية . واجه دنياه الجديدة
بالتوجس والدهشة والقلق والاكتشاف والخوف .

أعطته نجاة أننها ، ينقل لها أحداث كل يوم : المبنى ذو الأعمدة الهائلة ،
والدرجات الرخامية ، المدرجات المزينة بالطلاب ، المعامل ، المعدات
الضخمة ، الكافيتريا ، تبادل قراءة الصحف ، المناقشات السياسية ،
الصداقات الجديدة .

احتضنته بنظرة دافئة

- أهم شيء أن تتفوق فى دراستك . هذا ما يريده أبوك .

وهو يهز شعتيه المرتحفتين .

- بابا يريد ما يحبه لى ، لا ما أحبه أنا لنفسى .

وتنهذ

- بابا يريدنى فى قالب هو نفسه لا يعرف شكله .

- أبوك لا يريد إلا نجاحك .

غلف باسم صوته بجدية :

- قاتين أو آتى إليك ؟

أعدت كلاماً ، ثم أغفلته ، عن إحساس الضيفة بعيداً عن البيت ، تستأنن لتصرفاتها ، تحتفظ برأيها فيما يثار من أسئلة ، تبتعد إذا مال راسى وهناء إلى الهمس ، تدرك أنهما يتكلمان فيما لا يريدان أن يطلعاها عليه ، تلزم حجرة باسم ، لا تسأل عما تشاهده ، أو تقرأه ، تتنارل عن المواعيد التى ألفتها فى تناول الطعام . تهمل ميلها إلى الوجبات الساخنة ، الخضار المطبوخ وقطع اللحم والأرز . تعرف أنه يدخر لصفقة جديدة ، فهو يقصر معظم الوجبات على التونة المعلية وشرائع البطاطس والسلطة الخضراء . ربما كان ذلك فى وجبتين متتاليتين . لم تكن تحب نوعية الطعام، وإن لم ترفض ، ولا أظهرت ما يشئ بالاعتراض .

وهى تتعمد أن يسم النهل صوتها

- مذاكرتك أفضل !



تأكدت من موضع الحقيبة القماش بين ساقيهـا . خشيت أن تروح فى
لكوم ، فلا تحد الحقيبة إلى جانبها .

لم تتصور أن ملاحظتها حول تنخر باسم فى العودة إلى البيت
مستلذى علاقتها بهناء ، تنتهى بها إلى الطوس وحيدة على كرسى فى
هديقة المنشبة . إلى اليمين شارع محمد كريم ، وقضبان الترام ، ونصب
الهندي المحول ، تقابله فيلا جميلة كأنها قصر (عرفت - من فاطمة -
أنها القنصلية الفرنسية) ، محاطة بسور من الياسمين وقضبان
الحديد المدسة ، ومن الناحية الأخرى مبنى المحكمة الذى ترى واجهته
الظلفية من دعة الشقة ، ومن بعد ، طريق الكوربيش ، والأصواء المتناثرة
فى ظلمة البحر - إلى اليسار تمتد الحديقة إلى ميدان محمد على ،
والشوارع التى تعرف ملامحها ، وإن كانت لا تعرف أسمائها . الدكاكين -
فى المواجهة - ينفذ الصمت والأصواء الخافتة من انفراجات أبوابها
المواربة .

ثنت نظرة عفوية إلى ظل المبنى الزجاجى المصمت خلفها ، وحركة المرور
القليلة فى الشارع الموازى للحديقة .

ألتها شتمة راسى لباسم .

قالت .

- باسم لم يعد صغيراً ، من حقنا أن نحاسبه ، لكن الإهانة غير مقبولة -
صرخت هباء

- هذا ليس شأنك !

تركزت مشاعرها في نظرة عينيها ، محملتين بالحر والالم

- أنا جدته ..

- وأنا أمه !

وأشارت بيدها ، كي تظل صامتة

- تكررين نصائحك ، كنتك واعظة .

واختلج صوتها بنبرة غصب :

- عودناه ألا يعطى أنه لغير أمه وأبيه !

تقلصت شفتا نحاة في مغالبة للالم

- تعامليننى كضيفة .

رفعت إصبعها في وجهها :

- أنت أمى .. لكنت ضيفة على أسرتى ..

حديجتها بنظرة متألمة نزعته السواد [لم تتصور - منذ وفاة محرم -

أنها ستخلع السواد] ، ترتدى بنطلوناً من الجينز وبلوزة هريرية بيضاء ،

واسعة الكمين ، تآثر فيها الكثير من الدوائر السوداء الصغيرة .

هل الملامح - كما قال محرم - هي الأقرب إلى ملامحها الشعر الذي

صنع هالة سوداء حول وجهها ، يعشق بياض البشرة ، العينان العسليتان ،

الشففتان المكتنزتان ، هل هذه هي ، أم أنها اكتسبت من رامى ملامح لا

تعلنن إليها ؟

شعرت بالفوضى في داخل ذهنها ، تمنعها من التفكير على نحو صحيح

أرادت أن تتكلم - عانت تعثر الكلمات على شففتيها ، أو أن المعاني تلاشت

من ذهنها - أدركت أن رامى أقام جداراً غير مرئى بينها وبين هناء .

زفرت :

- ربما من الأفضل أن أعود إلى بيتي '

- هذا شأنك !

عكست ملامح رامى عدم رصانه عن حدة هناء ، وإن اكتفى بكلمات مشفقة من أن تترك البيت فى منتصف الليل .

يصعب عليها التخلص من الإحساس بأن رامى هو من يجب إلقاء اللوم عليه . كز السير لم يقريه منها ، ظل بعيداً عن نفسها .

تثيرها التنازلات القاسية ، والتي لا مبرر لها ، من هناء ، مقابلاً لحرص رامى على امتلاكها . تعرف أن ابنتها قالت ما أراد زوجها أن يقوله ، لتصاح لما يقوله : لأن هذا هو ما يريده ، تنفذ أوامره دون أن تفهم المعنى كاملاً ، تلتقط إيماءاته ونطراته وتلويحات يده . تكره تدخلها فى حياتها ، ولا تناقش سيطرة رامى بما يصعب عليها مجرد التفكير .

هو لا يحبها ، وهى تبادله الشعور نفسه .

حتى نظرتها إلى ظهره ، كانت تنعكس فيها روحه العدائية ، يحرص أن يهدد قامته ، كأنه يتحدى ، أو يتهيا للعراك .

غاضبها التصرف :

- لم تعد صغيراً ، قد ترفع السداة بأسمائك فتفقدنا !

وهو يعتصب ابتسامة

- كل تصرفاتى لا تعجبك !

يفيظها ارتداؤه ملابس الداخلية ، والسير حافياً - فى البيت - أشهر الصيف ، تدقيقه فى الطعام الذى يطلبه . لم يكن محرم بلبه بما يقدم إليه ، يأكل ما تضعه على المائدة . تعيب على رامى احتساء الشورية كأنه

يتمتعها، إهمال اسكاب الطعام على نيجامته ، تجشؤه المعاجيئون أن
يداري فمه ، قد يجمع - بنظراف أصابعه - ما تنثر على المائدة من بقايا
الطعام ، ويقنعهإ إلى فمه ،
يتحسس بطنه براجته :

صار لى كرش ، يجب أن تقلل هاء من الأكلات النسمة .
يعلو صوتها بالاستتياء .

حتى فى الشراة تلقى اللوم على هاء ١٤

يكتفى بنظرة محايدة ، ويعود إلى ما بين يديه ، كأن الأمر لا يعنيه
تعرف أنه كوين ثروة من تجارة السوق السوداء ، وبيع العملات ، وغسل
الأموال ، يشتري من صانع فحار بالمتراس قطعاً يعلفها بالرسوم والمقوش
الملونة ، وبالرمل المثلث بالصمغ ، يبيعهأ للبحارة الأجانب والسياح كقوان
وتماثيل فرعونية وبطلمية .

يثق أن الفور فى الحياة لا يحتاج إلى قراءات ، ولا إلى شهادات عليا ،
وإنما إلى الفهم والشطارة ، والحصول على كل ما تستطيعه دون خسارة ، لا
أقل القليل ، يحرص أن يحسب كل شيء بدقة ، بالأرقام والتواريخ والأسماء
والأماكن . الأرقام - وحدها - هى ما يعنيه ، ما يشغله ، لا شيء فى حياته
إلا الأرقام ، الجمع والطرح والقسمة والضرب والريادة والنقص .

ألزمها مقاسمته دفع مصاريف الدروس الخصوصية لباسم ، وإيجار
الشقة ، وفواتير المياه والكهرباء والتليفون .

وهو يعلو برأسه

- أرفض أن أكون موظفاً ينفذ التعليمات !

ثم وهو يحك بقلبه بأنطافره

- أرفض الفرجة بينما الآخرون يستأثرون بكل شيء ١

يتكلم عن القواعد الجديدة التى تحكم العلاقات بين الناس ، احتفت
الحيرة والصداقة والمودة . حل بدلاً منها انتهاز القرص ، والحصول على ما
قد يكون حقاً للآخرين . ازدحمت العابة بحيوانات لم تشهدها من قبل ،
هراستها تفوق الوصف . إذا أردت العيش فلاند أن تكون أسداً . الحب
يجوز بين ذكر وأنثى ، رجل وامرأة ، لكنه صعب فى المعاملات التجارية .
التجارة منافسة وحسومة ، حتى بين شركاء العمل الواحد . لا بأس بالحب
فى الأغنياء والأفلام ، لكن التجارة تقوم على الحرب وحدها . زماننا الحالى
يحتاج إلى قراءات متعمقة فى القوانين ، ومهم لأصول التعامل ، والتصدير
والاستيراد وتحليل الصفقات ، والمناقصات ، والمشروعات ، وأبونات
الصرف ، وقروض البنوك . لم يعد العمل فى الميناء بمنطق خذ حق
الحكومة ، وأعطى حقى خذ ما ليس من حقك ، وأعطنى ما أطلب حتى لو
يكن من حقى . مصر كلها - الآن - سوق حرة ، لا مجال للحياة فيها إلا
للشطار . من يعرفون قيمة المال ، ويبرعون فى استثماره .

قالت

- أنا أحب الطرق المستقيمة .

قلب شفته السفلى متطاهراً بالحيرة

- ماذا يفعل إذا كانت كل الطرق ملتوية ؟

نطق وجهها بالاستياء ، وإن حافظت على هدونها

- لا توهمنى أن الخطأ هو المتاح الوحيد

- لا أتحدث عن صواب أو خطأ ، وإنما عن كيفية مواجهة الظروف .

أعادت النظر إليه . كأنها تراه للمرة الأولى . أقرب إلى الامتلاء ، قامت

طويلة ، لون بشرته مائل إلى السمرة ، جبهته عالية ، عيناه تعانيان جحوظاً واصحاً ، أنفه كثرة كمثرى صغيرة ، شفتاه ممثلتان ، يعيل إلى المقاطعة ، حتى من قبل أن يستكمل محادثة إنداء وجهة نظره ، يجيد سرقة الحديث ، فيقصره على نفسه . يلجأ إلى يديه وتعابير وجهه ، لكي يحدث التأثير الذي يريده . يكثر من القسم بالطلاق ، وألفاظ السباب ، لا يفسر سلوكه ، ولا يعتذر عنه . يروى النكتة ، ويضحك عليها ، دون أن ينتظر رد الفعل . إذا ضحك اهتز جسده كله ، يذكرها بقدر .

كانت هيئة محرم تعلو عليه تصرفاته السابقة ، وكلماته التي تتدبر المعاني جيداً ، ومراعاة العيش في بيت ليس بيته .

حين أمسك ورقة وقلماً ، وعرض أن يحسب لها الفرق بين معاش زوجها والمعاش الذي تحصل عليه ، ربت ركبته .
- ما أنقاضه يكفى ويزيد !

لم يكن لديها ما تتكلم فيه . تفضل الصمت . يحاول فتح معاليق صمتها ، يبدى ملاحظة فيما لا شأن له به ، أو يطلق نكتة ، يضحك قبل أن يتدبر وقعها ، محرد أن يستقر عزلتها ، تكتفى بإيماءة ، أو بإبتسامة متكلفة . إن تكلم يتجه بعينه إلى الناحية المقابلة ، ينثر بين عباراته كلمات بالإنجليزية يعرف أنها لا تفهمها ، مجرد حرص على الاختلاف ، يخلط في كلماته بين المراح والعمز واللمز والاستفهام ، ربما قال العبارة ، ثم مال على هاء يكلمها دون انفعال من أى نوع ، كأنه لم يقل شيئاً .

قال لها صباح أول أيام العيد :

- إن شاء الله تكونين معنا في العيد القادم .

حدجته بنظرة مستغربة .

- أين ساكون ما لم أكن هنا ؟

دارى ارتباكها بتعاضد نظراتها .

- الأعمار بيد الله !

بدت المسافة بينهما متسعة بما لا يمكن وصله .

لم تعد تشعر بالراحة فى وجوده ، تقيظها تصرفاته ، وملاحظاته ،
والميزات ، وكلماته المستعزة ، تسخفه . فيظل على هبونه ، لا يبدى لقلها
ثأراً على أى نحو . يداحلها توقع بأنه يمكن أن يقول أى شيء ، ويتصرف
على أى نحو .

ربما واصل الكلام دون أن يلحظ ما إذا كانت تصفى إليه . تكسو وجهها
جهامة تصده عنها ، استطاعت - بصمتها ، وردودها المقتضية على ما
يروجه إليها من أسئلة - أن توصل إليه إحساساً بعدم رغبتها فى الكلام .
فمر الساعات دون أن يتادلا كلمة ، كلماتها تتجه إلى هباء ، أو باسم .
تظهر مفرداته النابية .

فاجأها بالقول

- ألا تفتندين حاضن حمائى ؟

لا يستنها قشعريرة فى طول عمودها العقرى ، لم تكن تجيد إخفاء
مشاعرها ، تحتغط بهبونها ، لكن الملامح تبين عما تحاول إخفاءه . شعرت
أنها لا تطيق أن تسمعه ، هو شخص لا يحتمل .

قرب أصابع يده - مضغومة - من شعتيه المزمومتين

- ألا تشاقين لقبلاته ؟

وتناول السكين يقشر ثمرة المانجو

- موت الرجل أحال حماتي إلى المعاش في عزها ،

وهي تغالب انفعالها :

- لا تتحدث بهذه اللهجة في وجود باسم .

غالب توتره ببسمة سخيرة ،

- باسم رحل ، عليه أن يعرف لغة الرجال !

أطالت التفكير في معنى الكلمات - هل هي عفوية أو مقصودة ؟

حرصت على العزلة والانطواء ، فهي ترم حجرتها معظم الوقت ، لا

تفادرها إلا للمشاركة في تناول الطعام ، ولا تكلمه إلا رداً على سؤال .

تصع في نظراتها إصرارها على المسافة التي تضعها بينها وبينه ، تعيد

تفسير كلماته وإيماءاته في معانٍ لم تخطر لها من قبل ، ولا توقعت أن

تشغلها ، تجيب عن أسئلته بكلمات قليلة ، تعطي المعنى ، ولا تتكلم إلا بعد

أن يبدأ هو الكلام ، يسأل ، أو يبدى ملاحظة ، أو يروي ما يهمه أن يروي .

ربما اكتفت بنعم أو لا ، تنح بنظراتها إلى الناحية المقابلة .

علا صوت هناء بال غضب ، لأنها سجلت توكيلاً لعبد الرحيم الساعى

بفرع مظلمة الصحة ، فيتسلم معاشها من البنك

- ففت هذا حتى لا أعرف حقى فى ميراث أبى .

اصطبغ وجهها بحمرة

- ميراث ١٩

- ما تركه أبى غير المعاش .

أحست أن شيئاً يتفتت في داخلها

- لم أحصل على مليم خارج إعلام الوراثة .

وأودعت نظرتها تائراً :

- إلى متى تكونين صوت رامى ؟

عانت على هناء أنها تظل صامتة أمام كل ما يقوله رامى ، وكل ما يفعله ،
تتصت لما يقوله ، وتلمس كل ما يطلب ، لا تسأل ، ولا تناقش ، ولا تبدى
ملاحظة ، لا تحاول حتى أن تسأله عن معنى الكلمة ، أو التصرف ، كأنها
انجذبت إليه تماماً ، ذابت فيه ، كغثها بemie يجيد تعريكها بحيوط غير
مرئية ، حتى الآراء التى تؤمن بها هناء ، أو توافق عليها ، ما تلت أن
تبتلعها ، توافق - بالصمت .

على ما يصدر عنه من آراء وتصرفات ، لا تعلق ، ولا تناقش . تضع
راحة يدها على ظهر اليد الأخرى ، وتخفص رأسها ، كإن الامر لا يشغلها ،
أو أن رامى ألزمها الصمت . تظل من عينيها نظرة استكانة ، لا تواجه ،
ولا تحدى ، تكاد لا ترتفع عن الأرض .

- أنا لم أكن أعترض على ما يقرره أبوك ، لكننى كنت أناقشه .

مالت هناء إلى تقليده . كانت تشاركها شائى الصباح . لا تطلبه ثانية فى
اليوم كله . هى الآن تشارك رامى شرب الشائى والنسكافيه ، وتدخين
السجائر أيضاً . أظهرت بهشتها وغضبها ، فاشاحت هناء بيدها فى لا
مبالاة .

اعتادت تردد هناء على البيت ، تدفع حقيبتها الجلدية أمامها ، فتعرف أن
رامى أغضبها ، وأنها تعود بشايبها .

أبدى ملاحظة على أداء على الحجار لأغنية " صلينا العجر فىن " ..

قالت فى لهجة مداعبة :

- أغنيات على الحجار لا تناقش !

وردت -

صلينا لعجر من .. صلينا في الحسين
علا صوته بالانفعال

تسحقيني من أجل مطرب ؟

ضربت نجاة على صدرها .

تعويدين بحقيقتك لهذا السبب ؟

كانت هاء تكتفى برواية يواعث

على محرم ، يعفى ابنته من الأسئلة
يعرف أسباب عودتها إلى البيت .

مرة وحيدة ، اكتفت نجاة بالعضب في داخلها . كتمت ما روتها هاء عن
تحسس رامي جسدها وهي نائمة . ثار لارتدائها ملابسها الدخلية . هي
بذن تكرهه ، وترفض مضاجعته ، هي ليست المرأة التي أراد الارتباط بها .
أغى الأسر رشعتني لبناتها ، لكنني احترت أنت ، تزوجت المرأة الخطأ .
وها أنا ذا أنفع ثمن غفلي .

رفضت أن تعيد ما قالته هاء . لم تتخيل كيف يتقبل محرم سماعه .

همست بتمازج الدهشة والحيرة .

- هو يجب على الزوجة أن تتعري وهي نائمة .

قالت هاء وهي تخفض رأسها :

- لم يطلب ذلك من قبل !

تقلصت ملامحها بالامتناع :

- سبب لتوجيه اللوم !

حين أبدى رامي ضيقه من ترحيب أنبها بعودتها ، واجهه محرم

بالاستياء .

- أنت أخذتها من هذا البيت ، إذا حدث ما يؤلمها فهي تعود إليه '
 يضيف إلى استيائه ما يعرفه من هناء أنها لا تضع في حقيبتها - حقيبة
 واحدة - إلا ما يوافق عليه رامي ، هو الذي يحدد ما ينبغي ، وما لا ينبغي ،
 أن تحمله في عودتها إلى البيت ، كأنه يملك كل شيء ، ولا تملك هي شيئاً .
 البطاقة الصغيرة ، الملصقة على الجدار ، فوق مكتب هناء ، ألفت رؤيتها
 لسنوات " هناء محرم ، دكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة بوسطن
 بالولايات المتحدة " .

- سمحت لنفسك بدرجة الدكتوراه .. هل حاولت الحصول عليها ؟
 اهتمت بمظهرها في الجلوس داخل الحديقة ، وجهها الحالي من
 المساحيق ، المحاط بإيشارب يقطى شعر الرأس ، والتاثير الأسود المسدل
 إلى قدميها .

هي لن تثير الريبة ، ولا الرغبة في المضايقة .
 - الوقت متأخر .

تأملته من تحت عينيها . الضوء الساقط من أعلى أظهر ملامحه . هي
 هوالى الستين ، يميزه شعر مهوش ، وحاجبان كثيفان اختلط فيهما السواد
 بالبيض ، وأنف مفلطح ، وشفتان متورمتان - يرتدى بدلة صيفية ، وصندلاً
 أظلت منه أصابع متسفة .

تملكتها حيرة ، لا تدري كيف تتصرف ؟ ماذا تقول ؟
 ألم يلحظ التفافها بالسواد ؟!

هز راحتيه في الفراغ

- نحن في إبريل .. الخماسين صعب ..

استطرد في نبذة متواصلة

- هواء الليل لطيف .. يغرينا بترك البيوت .

هرت رأسها بما لا يهب معنى محدداً .

مط شفته السفلى :

- الربيع !

ثم هز رأسه نافياً :

- مصر لا تعرف الربيع ولا الخريف ، جوها شتاء وصيف .

وأشار بيده ناحية البحر :

- الربيع هناك فصل للحب .

أوماً إلى شبابين ، النصفا تحت ظل شجرة هائلة الأغصان

- سنموت ونحير عمداً .. لماذا لا نستمتع بحياتنا القصيرة ؟

رمقته بنظرة مستغربة . هل يتصور استجابتها لكلماته الملحة ؟ هل

تدو مهياة لعلاقة جسدية ، أو حتى عاطفية ؟

غالبت التوتر في صوته :

- ما بقي من العمر أولى أن نقضيه في العبادة .

ولونت نبراتهما :

- للشباب ظروفه ، ولنا نحن ظروفنا .

بدلت جلستها ، اتجهت بنظرها ناحية ميدان محمد علي .

أدرك معنى الكلمات ، والتصرف . مضى بعيداً .

قامت من جلستها في بدايات النهار . حرصتها رؤية صاحب الكشا

على ناصية شارع محمد كريم وميدان المنشية ، تأكد من وضع جهاز

التليفون إلى جانب الواحة الزجاجية ، وسط الصحف وعلب السجاير

والشيكولاتة والمنايل الورقية .

استعادت الرقم في ذاكرتها . أعدت نفسها لتكراره ، محذف وإضافة ،

حتى يرد الصوت الذي تطلبه .

هتفت بمفاجأة كلمة ألو المغموسة في النوم .

- فاطمة !

- ست نجاة ؟

اعتصبت ابتساماً .

- تذكرتنى ؟

هى فاطمة التى تعرفها ، وإن بدت القامة - فى العباءة السوداء الواسعة -
أقرب إلى الامتلاء ، التقاطيع المتناسقة ، البشرة الخمرية . العينان
السوداوان اللامستان ، يعلوهما حاجبان رفيعان . بدت فى جانب قمها سنة
ذهبية ، وفوق خدها الأيسر شامة بنية صغيرة . وأحاطت معصمها بثعبان
من الذهب المصفور . عصبت رأسها بمنديل أسود ، زين طرفه بهواشى
مطرزة . نبت قدميها فى حذاء خفيف من الكاوتش .

حين أثقلها حمل هناء ، أقامت فاطمة فى الشقة . قامت بأعمال البيت ،
وشاركت فى رعاية هناء ، حتى تقدم لخطبتها موظف بإدارة الأرشف
بالمكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية ، رشحه لها محرم . تساعدت
زياراتها إلى البيت ، ثم اقتصررت على مكالمات التليفون .

قالت :

- لم أفعل ما يستحق قضاء الليل فى الطريق ..

استلذت فاطمة فى لهجة مداعبة :

- فى الحقيقة .

أضافت مهونة :

- ما حدث اختبار لقوة إيماننا

وهي تقالب تأثرها :

- اختبار صعب !

تحرك في داخلها ما طال احتباسه . غطت وجهها بالسدل في يدها ،
وانفجرت بالبكاء .

لاحظت فاطمة أن سقف الشقة عال ، لا تصل إليه المقشة ، ولا المنفضة
الريش ، ولا قطع القماش ، كما في البيوت الجديدة . طلبت من جودة الباب
أن يشتري ما سمته رأس العبد . أو ما يفهمه للتسمية . بنت رأس العبد هي
الوسيلة الصالحة لإزالة العنكبوت والتراب من الأسقف ، والزوايا لعالية
لسجدران .

لمحت - في مرآة الصالة - تمنع فاطمة في وجهها أبرز الفستان الأسود
بياض بشرتها . عيناها اللوزيتان ، أحاطت بهما هالتان من السواد .
وامتدت خطوط رقيقة متعرجة على الجبهة ، وحول الفم ، وعلا الشفة رغب
أصفر ، حفيف . تحيط رأسها وعنقها بشال أسود طرزت حواشيه بخيوط
مذهبة . ترتدى عباءة سوداء سائفة ، لا يظهر منها إلا وجهها ويديها .
أشاحت بيدها :

- كبرت !

قالت فاطمة :

ما أراه بضع شعرات بيضاء .. لو أننا صبغناها لن يزيد عمرنا سنة
وحددة !

ثم في نبرة متعاطفة :

- أنت في عز الشباب .. حياتك أمامك !

أنت فاطمة من سوق الترك بخلطة أعشاب لإزالة التجاعيد من حول العينين . ترددت في قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت بعمرة في موضع الخلطة ، فكررت استعمالها .

أزمت أن يراها محرم - ذات ليلة - بما يرضيه .

تراجع للبودة في خديها ، والريميل حول عينيها ، والحمرة في الشفتين - لماذا تبدل خلقة الله ؟

ألفت مشاركة فاطمة لها في اختيار الطعام الذي تاكله ، ماذا تشاهدان في برامج التلفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تطلان في البيت ؟ تتحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واختفاء السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة في أوانها .

تعكى لها فاطمة عند قدومها - في الصباح - إن كانت قد ركت ترام خمسة المتجه إلى المشية ، أم احترقت الشوارع حتى شارع السبع بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، ثور حول مبنى المحكمة الوطنية في الزاوية المواجهة للبحر . تميل في طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى القنصلية السويسرية ، هالبايات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل البيت بألفة الاعوام .

تحدثها فاطمة - وهما تتناولان الفطور - عن حياتها خارج البيت ، عما لا تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصويره . التنقل بين بيتها في كرموز وبيت ابنتها في غريال ، تصفية ملابس الشتاء في هانو ، أول شارع توفيق ، تأخرها عن المجيء لوقوفها بالساعات ، تحمل حفيها ، أمام مستشفى دار إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادي تمتح بقك ، شروة سمك من باب عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود - زوجي - قال إن

مكتب المرحوم محرم بك مازال خالياً لم يشغله أحد ، إمام جامع العمرى قال لنا فى الدرس إن المرأة النميعة غير ملزمة بالحجاب (تدارى ابتسامة مشفقة) من توافق على أنها ليست جميلة ؟ ، زحام المواصلات أخرنى هذا الصباح ، البلد كئنها تهاجر ، حتى السمك يغشه الباعة ، باع الرجل - فوق كوبرى كرموز - قشر بطيخ مخموساً فى الدقيق والبيض ، وسواه فى الزيت ، صدق الناس أنهم اشترؤا سمكاً مقلباً ، هائلة بشعة فى شارع ميناء البصل عرية محملة بثوابيب البوتاجاز ، اصطدمت بسيارة ملاكى ، احترقت الملاكى بمن فيها ، ولد صغير .. تلميذ .. بترام ستة ساقيه (تضرب نجاة صدرها بعفوية : باسم) ، ضابط مباحث الثبان ألقى القبض على تاجر مخدرات يبيع بضاعته فى تقاطع شارعى عمود السوارى وباب الملوك ، صفاير البواخر فى الميناء الغربية أصيبت - منذ أيام - بجنون ، فلا تسكت .

تلتقط الأسماء والمفردات ، تحاول تجسيدها فى الذهن ، كرموز وغيط العنب وكرم الشقافة وكفر عشري وباب سدرة وعمود السوارى والبياسة ، تصل بين الأمكنة ، ترسم الملامح والقسمات .

لم تكن تبوح بمشاعرها لأحد ، وتكتم ما تعتبره سرها الشخصى .
تلاشى ما ألزمت به نفسها ، وما كان قائماً بينها وبين فاطمة من حرج .
لا تتناقش إن كان ما تزويه مما جرى ، لو ما يشغلها ، هو من الأسرار التى تائمن فاطمة عليها ، لا تتناقش حتى إن كان سراً ، أم أنه مجرد حكايات بين صديقتين ؟

خصصت لها حجرة القعاد ، السرير الخشبي الصغير لصق الجدار ، إلى جانبه طاولة صغيرة ، وكرسين ، وثمة مرآة بيضاوية توسطت الجدار .

أتت فاطمة من سوق الترك مغلطة أعشاب لإزالة التحاعيد من حول العيين . تردت في قبولها . مسحت بها أمام مرآة الحمام . لاحظت نعومة في موضع الحلطة ، فكررت استعمالها .

أزمنت أن يراها محرم - ذات ليلة - بما يرضيه .

تراجع للبودة في خديها ، والريميل حول عينيها ، والصرمة في الشفتين .

- لماذا فعدك خلقه الله ؟!

ألعت مشاركة فاطمة لها في اختيار الطعام الذي تاكلانه ، ماذا

تشاهدان في برامج التلفزيون ؟ هل تخرجان ، أم تظان في البيت ؟

تحدثان عن أحوال الجو ، وارتفاع الأسعار ، والتنزيلات ، واحتفاء

السلع من المجمعات الاستهلاكية ، وظهور فاكهة جديدة في أوانها .

تحكى لها فاطمة عدد قنومها - في الصباح - إن كانت قد ركبت ترام

خمسمة المتجه إلى المنشية ، أم احترقت الشوارع حتى شارع السبع

بنات ، ومنه إلى ميدان المنشية ، تنور حول مبنى المحكمة الوطنية في

الزاوية المواجهة للبحر ، تميل في طريق الكورنيش . إلى يسارها مبنى

القنصلية السويسرية ، فالبنائات المتشابهة ، المتلاصقة . تدخل لبيت بألفة

الأعوام .

تحدثها فاطمة - وهما تتناولان العطور - عن حياتها خارج البيت ، عما لا

تراه عيناها ، فيحاول ذهنها تصويره . التنقل بين بيتها في كرموز وبيت

ابنتها في غربال ، تصفية ملابس الشتاء في هانو ، أول شارع توفيق ،

تأخرها عن المجيء لوقومها بالساعات ، تحمل حفيها ، أمام مستشفى دار

إسماعيل ، هذه طعمية من البغدادى تستحق بكك ، شروة سمك من باب

عمر باشا ، لمذاقه طعم أحلى من سمك الحلقة ، محمود - زوى - قال إن

عنه ، أو تتكلم فيه . حبست أن جلوسها إلى قاطعة هو المخرج من وحدتها الصامتة ، التكلم في ما يشغل خاطرها من الأحداث ، والتصرفات ، واستدعاءات الذاكرة ، وهواجس الوحدة .

لاحظت في نفسها ميلاً إلى تأمل من يكبرونها في السن ماذا ستكون عليه حين تصل إلى أعمارهم ؟ ما يطرأ على ملامحهم من تعير ، هزال الجسد ، أو تهدله ، سقوط الشعر ، وشحوب بريق العينين ، وارتسامات التجاعيد حول العينين والشفتين ؟ ماذا يقولون ؟ كيف يتصرفون ؟ هل تسير بالبطء نفسه ؟ هل تقوى على صعود السلم ؟ هل تملوى على نفسها ، أم تجتمى بتقديم السن فتفعل ما قد ترفضه الآن ؟

لوفى وسط الأرضية كليم أسيوطى يمتد إلى قرب النافذة .

فى أول زيارة إلى الطبيب - بصحبة فاطمة - ارتبكت للسؤال :

- ما أحوال الأستاذ محرم ؟

خمن ما حدث لما مسحت - بطهر يدها - نموفاً طفرت من عينيها .

- هل ..

واستطرد فى نبرة مواسية :

- البقاء لله !

تكلت عما تعابه . تشمر - فى الصباح - بثقل جسدها ، فلا تستطيع القيام من السرير ، أو حتى مجرد الحركة .

قال الطبيب مهوئاً :

- إذا طردنا الهموم فسنطرد الأمراض .

قاس الضغط ، ودرجة الحرارة ، وسأل عن ظروفها الصحية .

نصحها بأن تبعد عن التوتر والقلق والإجهاد ، وتنشيط الدورة الدموية ، بالسير قدر ما تستطيع .

كتب خمسة ، وربما ستة ، أدوية . قال وهو يريت ظهر يدها براحتة :

- الدواء لا نستعمله إلا عند الضرورة !

دفعها الفراخ والإحساس بالفقد إلى التفكير فى ما حولها . وفى

التوقعات ، تحاول أن تفكر فى شيء قد يكون نافهاً ، لمجرد التأكد من

قهرتها على التذكر ، تستدعى أسماء أقارب وجيران ومعارف ، ترددها ،

فلا تلاحظ إن تعثرت فى قراءة الاسم ، أو تلكأ نطقها ، أو أنها نسيته .

تكتشف أنها تكلم فاطمة كثيراً ، تروى ، وتلاحظ ، وتبدي رأى .

لحال ، لا تنتظر رداً عن أسئلتها ، ولا تنتظر حتى تستكمل فاطمة ما تسأل

بكلمات قاسية . عمق من أله أن أباء قرأ ما حرص على إخفائه . ما كان
يعتبره سره الشخصي . ليس مجرد خطأ يستحق المؤاخذه . قلب أبوه في
مكتبه ولوراقه . حتى عثر على ما لم يتصور أن عيني أبيه تصل إليه .
تأملته بجانب عينيها . أخذ ملامحه من أمه وأبيه . ليس فيه ما يشبهها .
لكنها تحبه . تقبل . من أجله . ما لا تتصور أنها تسكت عنه . تشعر أنها
تحيا من أجله . لو أنه هو حياتها .

وهي تتظاهر باللامبالاة :

- من حق أبيك أن يؤذيك .

ورببت صدره .

- لا بد أنك أخطأت .

اعتادت أن تكتفى بمشاهدة نتائج المشكلات بين باسم وأبيه . تختلف
البواعث . لكن المشكلات تظل قائمة .

تكتم الإشفاق على باسم في نفسها . وتكتفى بالمشاهدة . والصمت .

ضغطت براحتها على يده :

- نتكلم فيما بعد ..

ثم وهي تتجه إلى المطبخ :

- يمكن أن تنام في حجرتي .. لا أنام فيها منذ وفاة جدك .

أشار إلى نفسه .

- هل أقيم هنا ؟

نظرت إلى يديه الخاليتين :

- استرح الآن .. نتكلم فيما بعد .

لم يضع في باله أن أباء يقلب في أوراقه . يكتفى بالسؤال عن مذاكرته

قالت وهي تنفّس في ملامحه ، الوجه المستدير المعتلى ، المشرب محمرة .
العينين العسيتين ، الأسنان المفلوجة
- مالك ؟

ألقي باسم بالحقية إلى مصددة السفرة .
- تركت البيت .
- لماذا ؟

ارتجفت شفاته بالتوتر
- بابا .. صفعى ..

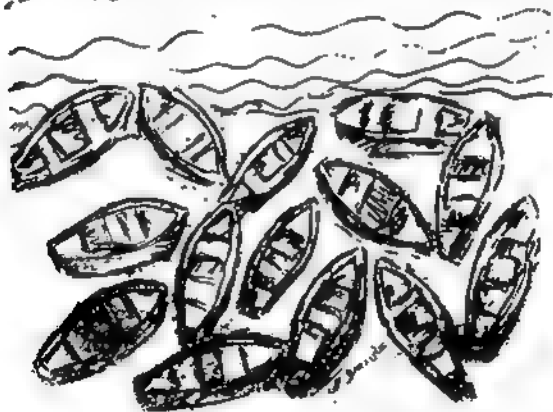
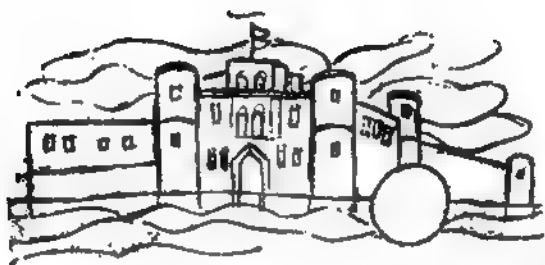
ومضت ابتسامتها المشفقة وهي ترقب تسحب باسم إلى حيث يجلس
محرم ، تصرفه العفوى حين يرمقه رامي - لحظة ما - بنظرة معاتبة ، يلاصق
كتف محرم ، كأنه يحتفى بجده من غضب أبيه .
قالت :

- هذه ليست أول مرة ..
اتسعت عيابه بالدهشة

- كأنك توافقين على ضربه لى ..
وتدأخنت فى صوته نبرة محتجة :

- لم أعد صغيراً .. بعد أشهر سأدخل الجامعة .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يصفعه أبوه ، أو يلكزه ، أو يزجره



وما يحتاج إليه . ربما لم يكن لديه . في تلك اللحظة - ما يشغله . قلب
الكراسة كمن يتصفحها . سقطت الورقة المطوية ، فالتقطها .

- لمن هذه الكلمات ؟

وعلا صوته كأنه يصرخ :

- من البنت ؟

اكتفى بهز رأسه في حيرة .

صاح للصعفة . والمفاجأة التي لم يتوقعها ، الزجر وسيلة أبيه لعقابه ،
يظل في صمته حتى تغيب المناسبة .

امدفع - بتلقائية - ناحية الباب . أهمل نداء أمه في ركضه على السلم .
تناهى صوت هواء في التليفون منفعلاً .

- باسم أخطأ ، ومن حق أبيه أن يعاقبه !

قالت نجاة :

- ابنك الآن شاب ، رجل .. لا تقيد به بالتحذيرات والأوامر !

استطردت كمن تلقي نصيحة

- من حق أي شاب في سنه أن يكون له أصدقاء وحياة خاصة ..

قالت هناء :

- أنت من تفسدينه !

وهي تعيد السماع إلى موضعها

- تكلمين أمك !

السفارة الإسرائيلية ، وطرد السفير ، وإدانة التأييد الأمريكي لحكومة تل أبيب . التحموا بطلاب العلوم والزراعة والحقوق والتجارة والآداب ، قدموا من شوارع صلاح سالم وتوفيق وسعد زغلول وطريق الكورنيش ، التقوا في ميدان المنشية .

تفحصته نجاة كمن يتأكد من شيء .

- كنية إبريل ؟

هز باسم رأسه دلالة النفي :

- نسيت حتى أن اليوم هو أول إبريل .

تدخلت فاطمة .

- المظاهرات في مدن كثيرة .

رمقتها بنظرة متوجسة :

- كيف عرفت ؟

- قناة الجزيرة .

هزت رأسها في صمت .

أول النهار ، تثبت فاطمة الثيفزيون على قناة فضائية ، تتابع إرسالها

أثناء تحركها في الشقة . تطيل نجاة وقت يقاؤها في السرير ، حتى تدعوها

فاطمة إلى الإفطار .

ربتت - ذات حجاب - كتف فاطمة .

- لا أعرف ماذا كنت ساقطه بدونك هذه الأيام .

لاحظت أنها تجيد فهم الناس بالفطرة . مجرد أن تستمع إلى الشخص

وتتابع تصرفاته ، تستطيع أن تعرف ما طبيعته . وإن كان طيباً أم أميل إلى

الشر .

فتحت الباب لتلاحق رنين الحرس . نظرت - بتساؤل صامت - للهفة في ملامح عاطمة .

- مطهرات في المشية .

هتفت بعقوبة

- باسم !

ضربت صدرها بيدها :

- بعد الشر عنه !

وملأت وجهها ابتسامة مهونة .

- البوليس لا شأن له بما يحدث ، يكتفى بالفرحة من بعيد .

ثم وهي تهز يدها .

- لا تعافى !

لم تخف قلقها حتى ترامى صفير باسم - الذي ألقته - في صعوده على السلم .

ظلت صامته ، وهو يروى ما حدث ساعات النهار المطاهرات التي هاجت هتافاتها دحل مدرج الكلية ، آلاف الطلاب تركوا مبني كلية الهندسة ، انطلقوا في شوارع المدينة ، يرفعون الأعلام المصرية والفلسطينية ، ينددون بالهجمات الإسرائيلية على الضفة الغربية وغزة ، وباستمرار حصار مقر ياسر عرفات ، يهتفون لفلسطين والمقاومة وعرفات ، يطالبون بإغلاق

- لماذا لم تعد إلى البيت ؟

- أغلقت الشرطة الطريق إلى البيت . طريق الكورنيش مغلق بطوله ..

استطرد وهو يلتقط أنفاسه بين الكلمات

- حتى الشوارع الجانبية أغلقت .

حدجته بنظرة مستفهمة

- ما شأنك ؟

- هل أقدم لهم نفسي كي يقبضوا على ؟

ثم وهو يحاول تفادي نظرتها :

- ظللت في محطة الرمل حتى فتحوا الطريق ..

لم تكن بعيدة - بأحداث زوجها - عن قضايا السياسة . ينتقش من قصبة إلى أخرى ، يفسرها ، ويسدى رأيه . لا تفرغ الأحاديث - في أوقات فراغه - بينها وبينه ، ولا تشعر - لحظة - بعدم الفهم ، أو التلذذ .

تداخلت في عبارات باسم كلمات مما كان يتناثر في أحاديث محرم إليها أمريكا ، الوفد ، مجلس الأمن ، عبد الناصر ، التجمع ، القدس ، حرب أكتوبر ، مبارك ، كامب ديفيد ، السادات ، الانتفاضة ، التلوث ، الحرب الوطني ، البطالة ، مجلس الشعب ، النكسة ، الأمم المتحدة ، الغلاء ، الفساد ، الرشوة ، الكرة ، الجماعات الدينية ..

عادت رؤية لوريات الشرطة في موازاة رصيف الكورنيش ، صف طويل من اللوريات ، أطلت من قضبانها الحديدية أعين العساكر ، وتناثر بينها عساكر يحملون المدافع الرشاشة .

باحث لفاطمة بما تصورت أنها نسيته ، وعرفت من فاطمة ما لم تكن تعرفه ، حتى من قبل أن تصبح محرم - للمرة الأولى - إلى البيت .
عرفت كل منهما عن الأخرى ما تفضل مشاهدته في برامج التلفزيون ،
الطعام الذي تحبه ، الألوان التي تفضلها ، أغنيات تميل لسماعها

اتجهت بنظرتها إلى باسم

- كنت في المظاهرة ؟

- كل الطلبة كانوا فيها .

شعرت بوجهها يشتعل ،

- ألم تخف على أمك ؟ ألم تخف على ؟

- كنت واحداً من آلاف ، والشرطة لم تتدخل .

- لو أنها تدخلت .. هل كنت تمنعها ؟

شوح بيده :

- لا شأن لي بالمظاهرات ولا بالسياسة .

لما تحدث عن حضوره مهرجاناً لنصرة القضية الفلسطينية ، ارتعش

صوت رامي بال غضب

- أصرف عليك لتصبح مهندساً لا زعيماً سياسياً .

ووسم صوته بنبرة باترة

نحن أسرة محترمة ، لا شأن لنا بالسياسة ،

للم باسم جراته

هل السياسة كذلك ؟ .. هل هي شيء غير محترم ؟

رمقه بنظرة مستائة ، وعاد إلى الأوراق أمامه .

وهي تحاول إخفاء القلق :



هل أصبح باسم جزءاً من المشهد الذي تكثف برؤيته^{١٤}
اجتنبها من المطبخ - في اليوم التالي - ترامى صيحات وهتافات ، من
طريق الكورنيش .

أطنت من الناهدة .

مظاهرة^{١٥} ألم يسمعوا سير المظاهرات في هذا الطريق^{١٦}
العشرات من الطلاب رفعوا الأيدي والأعلام والهتافات واللافتات ،
يسيروا في اتجاه المشية ، ملأوا الميدان عن آخره . أحاط بهم صفوف من
عساكر الشرطة ، فلا يتوزعون إلى الشوارع الجانبية .

قال باسم

- ربما فطنت الحكومة إلى أن المظاهرات لا تقتصر على الإسكندرية .
وعلا صوته :

- كل الدنيا تتظاهر ضد العدوان الإسرائيلي على الضفة وعزة .
أضاف لدهشتها المتسائلة
- شاهدي القنوات الفضائية .

- هل هي مظاهرات كتلك التي خرجت أيام السادات ؟
قال .

- إنها ضد إسرائيل .. هذه المرة .
ورشى صوته بسخرية :

أعلن السادات سحب قرارات الغلاء بعد خروج المظاهرات .. قد تعلق
إسرائيل انسحابها من فلسطين هذه المرة !

مالت نجاة على باسم بنظرة مقساة
- وعيت على قضية فلسطين .. أما من حل لها ؟
قال باسم

- إذا استرد الفلسطينيون أرضهم من اليهود .
ولماذا أخذها اليهود ؟

رند العالم كله أمامه ، اختلطت الصور وتشابكت . أغمر عينيه يفتش
عن الكلمات المناسبة ، ثم عبر بيديه عن الحيرة التي تتملكه
- اسألني يايا !

استغربت الإجابة .

كان - منذ طفولته وحتى الثانوية العامة - كثير الأسئلة ، لا تقف
أسئلته عند قضية محددة ، ولا معنى بداته ، لا يتدبر تأثيرها ، وما إذا
كانت تحتل الإجابة ، أو تواجه بالزجر كيف ولدتنى ماما ؟ أين كنت
قبل أن أولد ؟ الله خلق الدنيا ، من الذى خلق الله ؟ .. هل المسلمون
وحدهم يدخلون الجنة ؟ لو لم نعرف أن الله موجود ، هل كنا نحاسب ،

وشى صوت رامى بالقلق :

- باسم عندك ؟

وضعت سماعة التليفون فى يد باسم .

تلاحقت كلمات رامى ، تحذر من اشتراك باسم فى المظاهرات ،

نقر ما سمعه التوتير يسيطر على المدينة . أُلقيَ عساكر الشرطة أبواب الكليات ، حطمها الطلبة ، وبفعوا العساكر أمامهم ، تدفقوا على الشوارع يهتفون ضد شرون وإسرائيل دارت معارك بين المتظاهرين والعساكر اختلط الهتاف والشعارات المفعمة والصراخ والصياح وصرايات العصي والفار المسيل وإحلاق الرصاص فى الهواء . قُتل طالب ، وأصيب كثيرون . أغلقت لكليات والمدارس ، أنزلت المحال ستائرُها المعدنية . حتى المحال التى ظلت مفتوحة ، أصرت الشرطة على إغلاقها . اصطففت اللوريات والعربات المصفحة . سدت الكرنوبات مداخل الشوارع الجانبية والتقاطعات . حثت الشوارع إلا من المتظاهرين وعساكر الشرطة ، والشواطئ ححرها الناس ، لأنو بالميوت والأماكن المعلقة . ارتفعت اللافتات والأعلام الفلسطينية فى الأيدي وصور ياسر عرفات وجمال عبد الناصر ، وألصقت على نواهد السيارات . أطل السكان من الأسطح والنوافذ والشرقات . تعالت ساريات عربات الشرطة والإسعاف والمطافئ .



وندخل الحصة والمار ؟ أين توجد الجنة ؟ وأين توجد النار ؟ هل الله في السماء وحدها ؟ لماذا يصر بابا أن أمام مفردى ؟ كيف يعلو الطائر في السماء ؟ إلى أين تذهب السفن في البحر بعد أن تختفى ؟ هل هي نهاية الدنيا ما وراء من التقاء البحر بأحر السماء ؟ لماذا تكرهين أسي ؟

أولى قبلاته لها في الليلة الثانية لجيئها . عادة من جلستهما على المقعد
الرحامى ، تكلمتا فيما لم يدره أحدهما في نفسه . ثانى يوم ، كتفيا
مالطوس في الشرفة المطلة على طريق الكورنيش . قامت لليوم ،
فلحقها ، أدار كتفيا ، واجهته ، لامس فيها شفثيه ، ثم ضغط . سرى
بالنشوة هي جسدها ، شعرت أنها تقب عما حولها ، وأنها ليست في
الدنيا .

عاب إحساس جسدها بالفرية في حصه ، يستكين - في طمأنينة - إلى
التفاف نراعيه حول خصرها ، مداعبة راحتيه لعنقا ، وحيدها ، وصدرها ،
قبلاته ، همساته المحرصة .

لم يكن للقاءاتهما الجسدية مواعيد يلتزمان بها . تحركهما العفوية ،
تمهد للفعل ومضة العين ، ملامسة اليد ، ارتعاشة الصوت . تحل لحظات
رتباك تشفى بالفعل الآتى .

أشفق - في البداية - من عدم فهمها . ترك - لتحقيق متعتها - نفسه ،
تفعل ما تشاء ، تجوس في مواضع الإثارة ، يستسلم لداعياتها ، تلح
سييدة اللحظة ، تأخذ ما تريد ، ويهمل ما يريده ، تجلس على بطنه كمن
يركب جواداً ، تتجه بأعلى صدرها ناحيته ، أو تعطيه ظهرها . فتح عينيها
على عالم جديد ، لم تكن تعرفه ، ولا تصوره من قبل .

لاحظ - ذات صباح - ميلها إلى استعادة تعصيلات ما لا يروى . تعازج
في لهجته الحسم والإشفاق :

ما يحدث في الليل ملك الليل وحده !

حين تباعدت لقاءاتهما العاطفية ، تعلل بأعذار تدعوه لأن يمضى الليل
نائماً . أدركت أن الأوقات لم تعد كلها مناسبة ، تكتفى بالاستجابة في
الأوقات التي يختارها . تشعر باستيقاظ رغبته بنظرة تعرفها ، اختيار

تراجعت لرؤية باسم يحتضن النبت على الكنبه . أحاطها بسعديه ،
صعطها إلى صدره ، مال على وجهها ، قبلها فى وجنتها ، وعى ذقنها ،
صعد بقمه إلى عنقها . امتدت راحته المتكورة داخل بلوزتها ، تصمط على
النهدين الصغيرين . كانت البت تطوح رأسها ، وتصدر ثؤهات مكتومة فى
محاولة لتلمص ، حتى ابلت منه .

عادت بصيبه الشاى الذى أعدته لمساعدتهما على المداكرة .
قدم البت لها بأنها تشاركه المداكرة . يشرح أحدهما للأخر ما يغمض
عه . أدس لها أهلها بلقاعات البيت . يزورها وتزوره .
قال أبوها وهو يفلق الباب وراءهما
- مى أختك ، فاحرص عليها .

قالت لنفسها وهى تعاني الارتباك فى وسط الصالة هل يكتفى بعناق
لقلة ، أو أنهما يمهدان للعلاقة الكامنة ؟
دفعت محرم لما هبط بشفتيه إلى عنقها :
- لا تفكر فى أكثر من هذا .

لم تكن تعرف عن علاقات الزوجين ما يعينها على العهم . لم تهينها
بصيحة ، ولا مجرد إيماة .

حين علق الباب وراءهما كانت تحهل كل شيء . فطن إلى أن إكراهها
على العلاقة ربما يؤنها ، ففكره . لا تزال طفلة ، ومن الخطأ أن يعاملها
بغير مشاعر عمرها .



العبارات ، تلوين الصوت بنبرة أقرب إلى الهمس . امتد الهدوء إلى ميكانيكية العلاقة ، يقبلان عليها تكلمة لما كان ، وما سيأتى .

وقال - ذات صباح - فى صوت حافت ، كأنه يحدث نفسه

- يحب أن نعترف ، لم يعد لحسدنا ما كان فيهما من قوة ١

كانت رغبتها على حالها ، لكنها رضيت استبدال ما اطمأن إليه من صداقة هائلة - أحبتها - بالعلاقة الجسدية .

يناوشه ما يدفعه إلى معاقبتها - تحوّه رغبة فى أن يضمها إلى صدره . يصده الإحباط .

يكرر المحاولة ، حتى يستكين إلى العشل .

اعتادت نومه إلى جوارها ، دون أن يقرّبها ، ليلة وداً أخرى ، يتجه إلى الناحية المقابلة ، تعرف من غميطه أنه راح فى النوم .

ما رآته لم يدر فى نالها ، ولا تصورت . بأسم حبيب قلبها . يهب الحب والإشفاق والتعاطف .

تبينت همس الصوت فى نذائها على باسم . أعادت النداء بصوت أعلى ، اتجهت بنظراتها - ربما لتتخلص من الارتباك - إلى الناعدة المطلة على البحر . لنوارس سحببات هسغيرة ، متطايرة ، وقبعات صيادى السنارة تعلق الأجساد المخنفة ، أسفل الكوربيش الصحرى ، والحرارة تتصاعد فوق المياه بتموجات مرتعشة ، والرطوبة محملة برائحة الملح والطحالب والأعشاب .

أهملت محاولة باسم عدل ثيابه

- البنت تحبك ، فاحرص عليها ١

وهى تدفع أمامه طعام الإفطار

- عرفت لماذا لم تعد تطلب حواذيتى .

ودارت قلقها بابتسامة فاترة :

- اكتفيت بحواذيت مى !

واكتست ملامحها جدية :

المساح بتعوق شرط أببك لكى تظل معى ١

لأيام متشابهة ، كتوالى أيام الصيف . لم يعد ممكناً أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه .

قالت فاطمة

- هل تطلين سحينة هذه الشقة ؟

وتكلمت عن اقتصار حركتها على حجرات الشقة والصالة والمطبخ والحمام ، والجلوس وراء الباعة المطلة على البحر .

- تعيشين في الإسكندرية .. رأيتها ؟

- نزلت مع محرم مرات كثيرة

استطردت فاطمة في نبذة مشقة

- آخرها السلسلة أو سراي رأس التين .

وأحلت للإشفاق ملامحها

- الدنيا واسعة .

أظهرت الدهشة :

- أتمشى على شاطئ البحر ؟!

مدت فاطمة يديها كمن تنفع خطراً

- مقامك محفوظ . ما أشير به أن تنزلي في مشاوير قرية .

تنهت إلى أنها - منذ فترة بعيدة - تجلس على الكرسي نفسه ، تطل من النافذة إلى أفق البحر ،

مجرد أن تطل على البحر ، ترنو إلى أعماقه اللامتناهية ، يداخلها الشعور بالأمان ، ليس ثمة ما يصايقها ، أو يثيرها .

مدت فاطمة شخصاً مناسباً ، تتبادل معه الأحاديث ، ما تريده هو العصفضة ، لا تميل إلى من يصايقها بالأسئلة ، والتعشيش عن المعنى

الغائبة ، وإقحام الدات ، حتى في المشكلات التي قد لا تخصها

ما أثار قلقها أنها كانت تشعر - في داخل الشقة - بالحرية ، وإن ناولتها شعور - لا تدري بواعثه - بالوحدة .

تهددت بنياها في هذه الشقة ، تطل من الباعذة على البحر ، والشارع الفاصل ، ومدى الرؤية من الناحيتين .

تعرف أن حديقة المشية قريبة تسير إلى بداية الجندي المجهول الرحامية ، تميل إلى حيث الحديقة هذا هو الطريق كما تذكره في عودتها إلى البيت . شقة هناء قريبة ، تطل على البحر من زاوية ضيقة ، منفذ بين عدرتين ، الشارع به نكاكين ورحام ، لكنها لا تعرف موضعه ، ولا تبين ما حوله .

أقسى الأمور أن تصبح وحيدة ، لا تجد من تكلمه ، تأخذ منه وتعطي ، تنوح بما في نفسها ،

عالت متأثراً وهي تقول لاسم هي التليفون
- نسيت هذا الصباح ، فعددت شاياً لي ، ولك .
وسرت في صوته ارتعاشة :

- نسيت أنك لم تعد هي !

مشاعر متناينة تتماوج في صدرها بانقباض لا يفارقه . كأن الحجرة حاصرها ، تطلق عليها ، تمتد يداها - بثلقائية - إلى جانبيها ، كأنها تريد فتح الجدران ..

ما يؤلمها تلاشى الأحلام عقب استيقاظها ، كأنها لم تكن ، تعجز عن
ستعادتها ، أو بعض قسماتها . الكابوس يظل فى الذاكرة ، تناوشها
ملاحه القاسية ، تزويه لفاطمة - تطلب تفسيره ، أو أنه مجرد هواجس لا
معنى لها .

قد تصحو ، دون أن تدري إن كان ما رآته ، أو عاشته ، قد حدث بالفعل،
أم أنه كابوس ؟

يدخلها ما يشبه الغيرة ، حين تتكلم فاطمة عن نومها مهددة الحين ، لا
تزورها أحلام ولا كوابيس ، حتى تستيقظ على ترامى تسابيح ما قبل أذان
الفجر من أبو العباس .

ربما أنصتت إلى أحاديث فاطمة عن أحوال انتهت التى صار لها ولدان ،
ورسائل ابنها من البلد الخليجى .

لم تعد الحامة القديمة ، هى الآن صديقة ، تأخذ وتعطى ، وتدى الرأى،
وتجلس حوزها إلى المائدة ، وأمام التلفزيون ، وتنظر من الفضة المطلة
على البحر .

فاجأتها فاطمة بالقول .

- لماذا لا تنزلين إلى السوق ؟

ثم فى نبرة موضحة

- تشتترين بنفسك ما تريدن .

انترعت ، يتسامة

أنا ؟

- من تظنين حبيسة الشقة طول العمر ؟

وهى تدارى قوتها :

تسوح لفاطمة كل ما فى نفسها . لا تخفى شيئاً ، حتى ما تتذكره من أحلام ، حتى أحلام اليقظة ، مجرد الوح ، لا تطلب الرأى ولا النصيحة . قد يداخلها حزن لغير سبب ، يثقلها بالتوقعات القاسية ، تتجه إلى فاطمة بملاح متقلصة ، وعينين دامعتين :

- لا أريدك معى الآن .. أريد أن أبكى !

كانت قدمها تطن الأعصاب المتناثرة ، فى الممر المعطى بالأشجار المتكاثة . طالعتها - هى مدى الرؤية الشاحبة - وجه له ملاح أليف ، كأنها رآته من قبل ، وإن لم تعرفه . فى اقتراب خطواته ، تبتذلت الملاح ، بدت كمسخ شائه الخلق ، تنتهى يده بمخالب طويلة ، وعيناه تصدران شرراً ، ولدهاء تسيل على جانب فمه الواسع . تلاحقت صرخاتها باقتراب المسخ ، أنقذتها هزة فاطمة لكفها .

انتفضت لتروى ما حدث ..

مطقت عينا فاطمة بالتوجس ، وإن ربت ركبتي نجاه مهوبة :
خيراً إن شاء الله .. فتأنج الأحلام عكس ما نراه !

ظلت الكوابيس تقلق نومها ، لم يكن فيها من تعرفهم ، لا محرم ولا هاء أو بسم أو رامى ، لا أحد حتى من أهلها فى دمنهور ، أو جيران البيت . اختلاط ملاح بصعب عليها أن تتبينها .

تكررت الكوابيس فى ليال تالية ، متقطعة ، متلاحقة ، كأنها تنتظر حتى تذهب فى النوم .

تصحو على طرقات وضربات وأشباح وأطياف ومردة وغيلان وصרחات ورثير وعواء وبداءات ، ورغوس حيات وأماعى ، وأعين تطلق شرراً ، وأموه تقطر دماً ، وألسنة متدلية كالأسياخ ، وأظافر طويلة متداخلة ، ومخالب ، وكائنات لا تعرفها . يبين على ملامحها - حين تصحو - ما عانته فى نومها

الطابق الثالث ، اعتادت صوت طشيش ثقيلة الملوخية ورائحتها [ألا يطبخون سواها ؟] ، ترنو - بعفوية - فى البسطة الأحيرة - إلى الطابق لرائع ، والسلم الحديدى ، المفضى إلى السطح .

ألفت الكلام ، الأخذ والرد والمصال والسؤال والجواب ، مع الباعة والمتعاملين مع الشقة كشاف النور ، المحصل ، الباعة ، البواب .

لاحظت الحياة من حولها

الجيران ، والطائرات الورقية ، وإطلاق السيارات ، والجالسين على لكورنيش ، والباعة ، وصيادو السنارة ، والطراحة ، والجرافة ، والبلاستيك المتناثرة فى الميناء الشرقية .

تستعيد - فى وجدتها داخل البيت ، أو وهى تجلس إلى فاطمة ، أو إلى باسم [عاد إليها] ومضات ، نثارات من المشاهد ، التقطتها الدكرة فى المشاوير بين البيت والأماكن التى تردت عليها ، الأسواق والشوارع والحدائق والجوامع والمقاصد والأضرحة وشاطئ السمرة وحلقة السمك موكب غروبى يندور أمام باب أبو العباس .. قط - فى فعه سمكة . يجرى ، بقفزات سريعة ، خارج الحلقة جرسون قهوة فاروق يفرش نشارة الخشب على مريمات البلاط . سقوط حرف من العبارة الإنجليزية أعلى نادى اليخت . عجوز تلصق شفيتها بالإطار النحاسى المحيط بمقام على تراز ، وتكى .. مرجيحة خالية فى سوق العيد ، تحدث صريراً بانفداع الهواء . امرأة أمسكت مطعها من رسفه وهو يتعثر فى إثرها .. مشاجرة بالأيدى بين نسوة فى شارع الأباصيرى .. فتاة تميل على مشر غسيل ، تفرد الملابس المتلة ، وتثبتها بالمشبك .. صبي حلاق فى إسماعيل هجرى مشغول بكس بقايا الشعر المتناثرة على الأرض ..

- لا أعرف ما فى نهاية الشارع !

فوتت قاطمة الملاحظة :

- تحتاجين حذاءً جديداً ..

ودارت ابتسامة فى كمها :

- أهديتك مودة قديمة !

- احتجت إليها للسفر إلى دمنهور ، أو للتردد على الطبيب .

اخترقت زحام سوق راتب علت الخضامات والمساومات والشحائم ،
تلاصقت سيارات النقل وعربات الكارو وعربات اليد ، فوقها ، والمقاطف
والسلال وأقفاص النجاج والفاكهة وكراطين البيض والجبي والسجق المتدلى
كضفائر الشعر على واجهات الدكاكين ، وأطباق السمان والعصاير ،
وعربات الطحال المشوى ولحمة الرأس والممبار وحمص الشام ولبليلة
والكشوى . تكومت - أسفل الرصيف وفى النواصي - أوراق ممرقة وبقايا
خضروات وفاكهة وسبك ، تفتلط روائحها برائحة الشواء والسبك المقلى
والفلفل والبخود والعطور والنخان المحترق ، وتترامى - من موضع قريب -
أصوات دق العطاراة .

غادرت الشقة - هى الأيام التالية - تشتت لوازمها بنفسها ، بمفردها ،
أو بصحبة فاطمة . يطالعاها - عند العودة - صف البهايات المتساوية الطوابق
والارتفاع ، والشبابيك العالية ، وإن اختلفت الشرفات والمقرنصات والنقوش
والزخارف الجصية .

تميز باب البيت من الدكان المعلق إلى يساره [عرفت أنه مخزن] ، تدفع
الضلفة الحديدية ، تستند إلى الدرازين الحشبي فى صعود السلالم إلى

هناك دنيا حقيقية خارج البيت . الدنيا الحقيقية خارج البيت .

غالت التوتر فى صوتها :

- الإسكندرية جميلة بالفعل .

كانت جالسة إلى نفسها ، وعيناها تتجهان ناحية البحر . تترامى - فى

هدأة الليل - أصوات خافتة ، متقطعة ، لاحتكاك إطارات السيارات فوق

الأسفلت ، صياح طائر ليلى ، هدير الأمواج فى اصطدامها بالمصدا ،

الإسمنتية .

أغمضت عينيها ، وأسدت رأسها إلى الكرسي ، وتنهدت

- ما أسخف الانتظار !

بد على ناصية شارع سوق السمك القديم ، رص فيها البرتقال في شكل هرمى .. طائرة ورقية ملونة بين منابتين .. أولاد يلعبون الكرة في رفاق جانبي ..

صحبها باسم إلى سطح البيت . ظل إلى جانب الرجل حتى أتم إصلاح " إيريال " التليفزيون .

نزل تسبقه الدهشة

- الإسكندرية من فوق جميلة .

اجتدبها المشهد الفسيفسائي في تنقلها بين جدار السور - أفاق المياه المحيطة بثلاث جهات - المينا الشرقية - من زاوية النظر - كأن البيت داخلها ، اختفى الطريق والكورنيش الحجري والمصدات الأسمنتية والشاطئ ، ثمة قوارب متناثرة بين لسان السلسلة وقلعة قايتباي ، وفي السماء أسراب طير ، تنطق ، وتعود ، هي الناحية المقابلة بحر مختلف ، بواخر ضخمة وأرصعة ومخارن وورش وحاوليات ورحلات بضائع ومداخن وصواري ورافعات وأوناش ويالات قطن ولوطات أخشاب وأهولة ويراميل وسيارات نقل وعربات كازو والمسارات الثعبانية لقطارات البضاعة - خليج الأنهوشي - رافقت محرم في السير على شاطئه - يصل في انحناء سرابي رأس التين ، بين الميادين الشرقي والعربي ، تختفي الأمواج والملاسنات وورش المراكب والكبانن والجزيرة الصخرية ، وراء النفايات والمائنن - أعلاها منذبة أبو العباس - فتكتفى بالتصور .

البيت ، لم يحيط به من الجهات الثلاث ، أشبه بحزيرة هي قلب البحر . تبسو الشوارع فريدة بين البنايات والمئن والأراج وأطباق الفضائيات .

- ماذا تشرمان ؟

- ساعد شايًا .

· لن تعرفي موضع الشاي والسكر .

ودارت ارتباكها بإبتسامة فاترة

- أنتم ضيوقي !

ضغطت على فخذ هناء ، واتحنت إلى المطبخ

- أنا أعرف موضع كل شيء !

قال رامي وهو ينظر إلى ما حوله .

- هل تستطيعين الحياة بمفردك ؟

تتابعت دقات الساعات في مواضعها داخل الشقة ، تلاهقت إلى حد

التداخل ، تتمايز في نغماتها وارتفاع أصواتها وخفوتها .

الساعات الكثيرة الموزعة في الشقة ، على الجدران ، وفوق قطع الأثاث ،

تشى بحم محرم لاقتنائها ، ساعات بسبول ، ساعات مستديرة ، ساعات

رقمية ، ساعات لها أصوات الطير ، ساعات ذات دقات كل ساعة ، وكل

نصف ساعة ، وصامتة ، مسهات . كلما اجتذبه تصميم ساعة ، قلبها بين

يديه ، إن اطمأن إلى جمال التصميم ، بابر بشرائها ، يبحث لها عن موضع

في الشقة ، إلى جانب ما سبق له اقتناؤه .

لم تطق التهجة العابثة في صوت رامي

أصاف دون أن ينتظر إجابتها :

عرفت أن باسم يؤدي الصلاة في أوقاتها

في نبرة حيادية :

- بصحته بهذا .

حين أعلقت باب الشقة عليها ، تصورت أنها لن تزور ، ولن تزار . ليلة لحديقة مثلت فاصلاً بين ما كان ، والأيام القادمة .

عرفت الطريق إلى شارع الميدان ، وسوق راتب ، وميدان المنشية ربما امتدت مشاويرها إلى أول شارع سعد رطلول ، تشتري ما تحتاجه ، وتعود إلى البيت . ميزت الطريق منكاكين ولاهيات وبيعة ، فلا تميل إلى شوارع أخرى .

قلدت فاطمة في فصال السانع ، تذكر رقماً أقل من الرقم الذى يعرضه لبضاعته ، قد لا تعرف الثمن ، لكنها تعرض ثمناً أقل ، تتوقع . كما اعتادت في فصال فاطمة . أن يخصم البائع ما يحضنها على الموافقة ، يقتحمها إحساس بالسعادة .

دفعتها الجراءة - ذات صباح - همالت إلى شارع القلكي . اشترت هداء على المودة . فى مائها ملاحظة فاطمة عن أحنيتها التى لا تسابر الوقت . تفلق باب الشقة ، تجلس على أقرب كرسي ، تغمض عينيها ، تحاول أن تستعيد نفسها .

تبعث نظراتهما المحديقة فى الشقة . لم تشر إلى تحلى هناك عن الثوب الأسود . أرجعت إلى امتثالها لكل ما يريده رامي . لحقت - بإشارة - تهيؤ هناك للتحول إلى المطبخ

- البحر أمامها .

ثم أظهر التصعب :

- فى شقتنا - كما تعرفين - يمكن أن تتمشى عينا الجار داخل شقة جاره

هل تصارحه بأنها تشعر فى داخل البيت براحتها الحقيقية ، لا نظرات متطلعة ، ولا أسئلة ؟

- لما تركت الشقة كنت أشفق على نفسى من التذكر !

وسرى فى صوتها ما يشبه الحشوجة

- نحن نطل فى فراونا من الخوف ، ثم نتبين - بعد أن تتمعنا المطاردة - أن الخوف فى داخلنا .

ثم استدارت . صارت فى مواجهته

- مجموع ما أمضيته خارج الشقة فى اثنتين وأربعين سنة لا يزيد عن بضعة أشهر !

استطردت وهى تهز يديها

- لا أخاف الحياة هنا . ليس لمحرم فى حياتى سوى الذكريات الحميلة

بدت فى هيئة من اتخذ قراراً

- لست فى حاجة إلى المداواة . أنا أعرف ما تريده .

ورفعت إلى هناء عينين ملتئميتين :

- الشقة هى حياتى مع أبيبك ..

وكورت قبضتها :

- هى وطنى .

- لينك تصحيحه بالابتعاد عن الجماعات الدينية .
- رمقته بنطرة مستفهمة -
- ماذا تقصد ؟
- ألا تعرفين الجماعات الدينية ؟
- وهي تحاول كتم مشاعرها ؛
- أعرف أن الصواب هي أداء باسم فروص دينه .
- قال كالمتننه ،
- إقدمة باسم معك جاءت في وقتها .
- وأصططع ابتساماة متوددة
- شقتنا - كما تعرفين - ححرتان وصالة ، يا نوب تكلمى رجلاً أعزب ا
- ووشى صوته بمرارة :
- حتى ملفات الأوراق المهمة أراجعها في القهوة بدلاً من البيت . عملى
- فى البيت كله أوراق ا
- صايقه بطء استجابتها . لجأ إلى الكناية والتورية ، والكلمات التي تعنى
- ما يريد . لكن ملامح وجهها ظلت بلا صدى . غاب الانفعال ، ونظرات
- التصديق ، أو التكنيب .
- تابعت - بتمازج الحيرة والصيق - ثقليه في كل ما يصادفه . حتى
- الزهور المحففة في ركن الصالة . رأته يرفعها من الفازة الخزفية ، ويمد
- أصابعه يتحسس داخلها .
- اتحنت نظراته ناحية البحر :
- يضيف إلى قيمة الشقة أنها غير مجروحة .
- ومد ذراعه في أداء مسرحى

وأنظروه ، نسيت ما قد يمثله رحيلى فى حياتك . وقال لو أنى فطنت إلى
الحيرة التى ستعانىها بعد موتى ، ما حرصت على بقائك فى البيت . وقال
لم يعد الحدىس يكفى للتفرقة بين حسنَى الية وسينَى السلوك . وقال عرفت
أن الملامح المسألة ، الطاهرة ، قد تخفى نفساً تواقاً إلى الشر . وقال لم
أدرك - إلا بعد النهاية - أن الحياة بكل هذا التعقيد . وقال كم هو مؤسف
أن يتعلم المرء بعد أن ينتهى كل شيء . وقال حتى الخوف نستطيع -
ماقتحامه - أن نتغلب عليه . علت شفته ابتسامة من حقه أن تظنرى إلى
البحر الذى تحينه دون توتر أو قلق .

نصحها بأن تتردد على مقامات الأولياء ، لا تكتفى بمقام على تمران ،
بحرى حى الأولياء والحوامع والزوايا والصوفية والموالد ولأنكار والأدعية
والابتهالات والأهازيج والتواشيح والتقرب إلى الله .

هزت رأسها بالحيرة .

عرف ما تعانیه . قال :

- طول عمرى أتردد على المساجد للصلاة وحدها

أريد لاتساع عينيه بالدهشة .

- إدا وجدت فى زيارة مقامات الأولياء راحة ، فلا بأس

واحتضنها بنظرة مشفقة :

- لا بأس من أن تصحبك فاطمة ، تعرف الأماكن جيداً .

تكلم عن مد مسافة المشوار من ميدان المساجد إلى حنقة السمك ،
ثلاثمائة متر أو أقل ، يؤنسها عجائز يرفون الغزل فى احناء مرسى
المراكب ، الصباح الباكر أنسب المواعيد للاختيار والشراء . تشتري أنواع
السمك التى تحبها ، وتجيد شيها ، وقليلها ، وإخالها القرن فى صينية
بطاطس .

ربطت بين ما تراه والكوابيس التي تلاحقها أرجعته - في اللحظة التالية - إلى ثبات صورة رامى في ذاكرتها .

لم تشعر - منذ رحيل محرم - بهذا القدر من الخوف ، خوف لا تدرى مصدره ، وإن بدت مسحنة رامى - فى بالها - شديدة الوضوح

جلس إلى المائدة الحالية من الأوراق والكتب والأقلام وكوب الشاي بالحليب ، فركت عينيها ، ثم أعادت التحديق هو هو محرم بالروب المسدل على البيجامة ، والطاقية فوق الرأس ، والحف المغربي ، والملامع الهادئة ، يجتذب نظراته من النافذة المطلة على البحر ، إلى حيث تقف على باب حجرة النوم .

أشار ناحية الكرسي المقابل .

جلست فى صمت ، كئنه قد أحصعها لإرادته .

عطفت إلى أنها يجب أن تبدى الخوف تشهق ، تصرخ ، تختفى من أمامه على أى نحو ، لكنها جلست دون أن يتحسرج صوتها بمجرد الدهشة ، كئنه يقاسمها الحياة فى الشقة كما فى الأيام البعيدة .

كم أربعين يوماً مضت منذ أطفأت نور الشقة فى أربعين وفاته ؟

قال لها إن كل شيء يجب أن يظل كما كان ، لا صلة لرحيله بتغيير حياتها . وقال - أعرف ما تعانين ، لاحظت تبديل رامى عما أظهر لى فى البداية ، لم أتصور أنه سيبلغ هذا الحد - وقال - لا تلومى هاء ، نحن لم نعلمها كيف تدافع عن نفسها - وقال - كان الموت يشغلنى ،

عاشت العقد والوحدة ، وعرفت الفرجة والتأمل والصدافة والدهشة
والسؤال والفصال وقضاء الأوقات بالوسيلة التي تختارها ، والسير -
بمفردها - في الشوارع المزبحة ، وروال الخشية على محرم من التوقعات
القاسية .

تصورت أن موت محرم يعنى موتها هي ، ترحل برحيله ، لكن الحياة
أخذتها ، ولم تعد الأسئلة تناوشها .

قال لها محرم - قبل رحيله - مداعباً عندما أنهب لا تتأخرى في اللحاق

بى .

لكنها تأخرت حتى النسيان .

بدا كل شيء بعيداً ، كئنه لم يحدث .

رنا إليها بعينين مشفقتين

- مادام يتاح لي زيارتك ، اعتمدى على نصائحي

ثم وهو يتهياً للقيام :

أعرف أنك قد لا تستطيعين زيارتي في مقابر المارة .

وأوماً برأسه :

سأحرص على زيارتك بين وقت وآخر .

انبتثق السؤال - فى داخلها - كالمفاحاة - من يعنى بموتها ؟

كان صوتها قد ارتجف بالتصعب

- تمنيت أن يدفن فى معنهور .

قال رامى فى لهجة مستغربة

- اشترى مقبرة فى الإسكندرية ليدفن فيها .

تمت أن تسبق محرم فى الرحيل ، لا تطمش إلى خضوع هناء لسيطرة

رامى ، لا تثق أنها تفعل ما يجب فعله ، حتى تدفعها إلى حوار محرم .

أوصت فاطمة ، اشترت لها من مكتبة بسعد رعلول ، خريطة لشوارع

الإسكندرية ، ثبتتها على جدار المطبخ

جرت بالقلم على امتداد طريق الكورنيش حتى انحناة الطريق إلى

ميدان المساجد ، وإلى حيث كان يصحبها محرم حوار الشاطئ إلى الحلقة ،

وورش المركب ، حتى سراى رأس التين .

حطت على الشوارع المفضية إلى شارع الميدان وسوق راتب . استعادت

- فى تأملها لحديقة المنشية - ما جرى فى الليلة القاسية .

لم يعد اتصالها بالعالم الخارجى ما ترويه فاطمة عن ذلك العالم - برزت

إليه ، شامتة ، تعرفت إلى قسماته وملامحه .

ظل رامى صامتاً . لم يكن محرم يتذن بتخطي الحاجز غير المرئى الذى وضعه بينهما ، لا يتطرق - فى أحاديثهما - إلى ظروفه الشخصية ، ولا يعيل إلى عبارات المبسطة أو الدعاة أو التلميز ، ويحرص على اختيار كلماته دبراً للمعانى المغايرة .

خمن رامى أنها لم تلتقط رسالته ، وأنها أفقدته اتجاه الحديث بالكيفية التى أعدها . لكى يخفف من وقع ما ينوى قوله ، استعاد ابتسامته المتوددة .
- نحن أهلك .. لماذا لا تسكن هنا ، وتأخذين شقتنا ؟
هل ضاقت به الدنيا ، فيحاول إيعابها عن البيت الذى لا تتصور نفسها بعيدة عنه ؟

تمارحت لهجتها المتسائلة بالفضب
- لماذا أشتري أو أبيع ؟ أنا أسكن شقة رخيصة !
- أنت لا تحتاجين إلا إلى مساحة الكرسي حلف الناعذة ، لتطرى إلى البحر .
تترك أن هناء تخالفه فى نفسها ، تعجز عن مناقشته ، أو مخالفته ، فتصمت .

قالت نجاة

- هل أترك الشقة التى تؤوينى ؟

قال رامى

مجرد انتقال من شقة واسعة إلى شقة أضيق قليلاً .

قالت

ماذا يجرى للسبب لو أنه يخرج من الماء ؟

وزوت ما بين جيبها :

ماذا يعنى بتلميحاته ؟

هى لا تبرئه من هدف لهذه الربارات ، تقاربت بما يريب ، يقتصر الكلام على الشقة الضيقة ، والقلاء ، والإيماءات التى تستفز الفهم ، يتكلم ، ويتكلم ، وهما ساكنة كأنها تعرف ما يريد أن يقوله . تهمل نظراتهما المتواطئة ، مع همسات تعرف أنها تقصدها .

يصابقها تحركه فى الشقة ، البحث فى الثلاجة عما يأكله ، إعداد طعام فى المطبخ ، إغلاق التليفزيون بحجة سحب برامجه ، التقلب فى المكتبة ، أى شيء ، كل شيء ، يوصل إليها الإحساس بأنه فى بيته . كل ما فى البيت حق له ، هو مسكون بالفصول والجرأة والميل إلى الاقتحام .

قال رامى فى لهجة متواطئة

- أنت سيدة وحيدة ، ونحن ثلاثة أشخاص .

ظلت على صمتها ولامصها الساكنة . خشيت أن تقول ما تؤاخذ عليه ، ما يلتقطه رامى ، يحذف منه ، ويضيف إليه ، يفاجئها بما لم تقله ، ولا دار فى بالها .

قال رامى .

- تمنيت لو أن الأحاب ظلوا فى مصر .. كنت سائجاً إلى تعاوهم فى أعمال كثيرة .

رفع محرم رأسه من بين الأوراق

- ما أعرفه أن الانفتاح أعاد كل شيء إلى ما قبل البداية '

ووشى صوته بسخرية

- تحققت الفوائد للأحاف ، وللشطار من المصريين '

ثم عاد إلى ما يقرأه .

فوتت الملاحظة .

- أمضيت الليل في حديقة المشية .

اكتفت هناك بتخلل شعرها بأصابعها ، وظلت صامتة .

مجرد السير من بيت هناك إلى الحديقة أخافها ، الظلمة والصمت والوحشة ، والنظرات المتسلطة والمقتحمة ، وإحساس المهانة الذي أربث خطواتها .

كان مفتاح الشقة هي حقيبتها . لم تكن تعرف موضع البيت ، ولا كيف كنت تتصرف ، استعانت - كالحلم - رقم تليفون فاطمة .

انتفضت واقعة ضيقت على الكلمات

- روجك يصر على أن يعاملني كعجوز مخرفة ١

قال لها الطبيب - في آخر رياراتها له - امتددي عن المضايقات النفسية .

هل كان يعلن بصيحتها لو أنه عرف ما يفعله رامي في حياتها ٢

تقلصت ملامحها بالقبض

- كنت قد حمدت الله أنني لن أراه ثانية ٣

أشارت هناك بأصابعها المضمومة إلى نفسها

- لا تريدني رؤيتي إذن ؟

- أنت تتكلمين على هواه ، ولا تفهمن إلا ما يأمرك به ٤

وشوحت بيدها ناحية الباب .

- اخرجي من حياتي !

هز في جلسته

- تكلمين ابنتك !

- يموت .. أليس ذلك ؟

وريتت صبرها

- هكذا أنا . أموت لو طال ابتعادى عن هذه الشقة .

ثم وهى تحيط المكان بامتداد ساعديها

- أستطيع - مغمضة العينين - أن أنتقل بين الأثاث ، دون أن أحرك قطعة

واحدة من موضعها .

انتبهت إلى ما دفعها للتفت ، التقطت عيناها تنقل وقعت محرم بين

الطرقه وحجرة المكتب وباب حجرة النوم .

علا صوتها فى تأكيد .

- هذه الشقة هى كل عمرى .. لماذا أتركها ؟

- من أجلنا .. من أجل باسم .

عمق من استيائها لهجة عابثة تتخلل صوته

- باسم يقيم معى .

رمقته بطرة استياء ، كمن تبلغه أن كلماته لن تثيرها ، لن تدفعها إلى

رد فعل من أى نوع .

هن تبلعه أنها لا تعيش بمفردها ، وأن الشعور بالوحدة غيبته زيارات

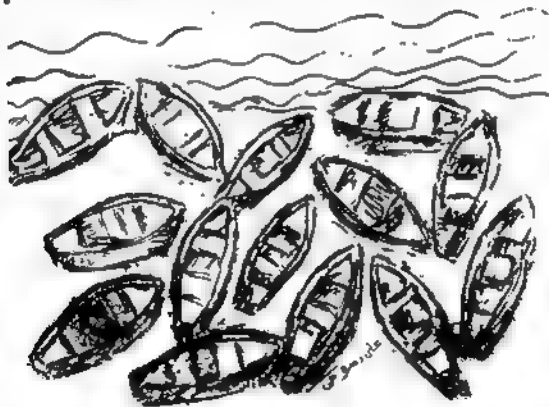
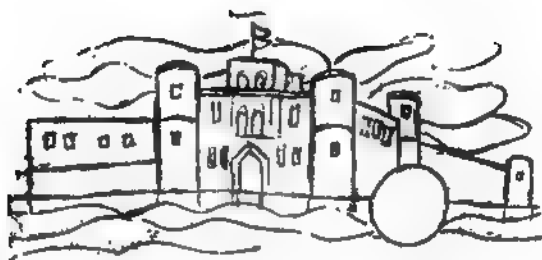
محرم التى تسال ، وتناقش ، وتبدى الرأى ، وتشغل الوقت بالمؤانسة ؟

تجهت لهناء بظفرتها المستاءة :

- أنت لم تسأليننى أين ذهبت بعد أن طرقتنى ؟

قالت هناء

- أنت تركت الشقة .



تحول نروعها لتضخم عويه ، وشعورها بالضيق من كلماته وتصرفته ،
إلى كره يصعب أن تحفيه ، هو سيئ من أفعه إلى يانه ، أمس إلى التأمير
والدس ، ويحلو من المشاعر الإنسانية .

رمته بنظرة مشتتة

- هناء مجرد معاء يردد ما يسمعه !

أوما رامى لباسم .

رببت فحاة صدره وهى تهم بإغلاق الباب :

- تعنيت أن تكون آخر من تراه عيني فى الدنيا ،

صعدت الدرجات الرخامية مضت - بإشارة من يد الرجل الذى ورب -
باليد لأخرى - نائاً زجاجياً من صلتين - إلى حجرة على اليمين
لم تقدم نفسها بصفة ما - اكتعت بذكر اسمها الأول «نجة» مسبقاً
بكلمة مدام - زال ارتياكها حين أهملت مديرة الدار سؤالها فى أى شيء -
خمت أنها ليست الزائرة الوحيدة للدار بون سبب -

المديرة فى نحو الخامسة والأربعين ، أبرر ما يعيرها عيذ كحيلتان ،
واسعتان ، وأسنان فلجاء ، وبشرة سمراء صافية ، غطت شعرها بحجاب ،
مقدته من الجانب بدبوس دهمى ، تتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، تنتهى
بمصحف ذهبى صغير -

تحدثت المديرة عن الحشرات المشعسة ، جيدة التهوية ، ولحديقة
لواسعة ، والنوافذ المطلة على البحر ، والرعاية الطبية والإسبانية ،
ولونت صوتها

- إيههم يسعدون بريارات الأصدقاء -

جسست «نجاة» فى الشرفة المطلة على البحر ، سالت ، وناقشت ،
واستفسرت ، عما لم تعرفه -

رُعجها قول سيدة غطت النقع البنية وجهها ويديها

- يزورنا الكثير من الناس ..

ورفعت كتفها ، ولوت شفتها السفلى

- ليسوا كلهم أهلنا ..

وخالط صوتها حزن :

- شُعر أنهم قدموا للفرحة علينا كما يتفرحون على حديقة الحيوان -

أضافت فى حزنها -

زارت - بصحبة فاطمة - داراً للمسيين .
رغبت فاطمة هي البداية ، تحدثت عن الأسرة والعيب والتقاليد .
ربت كتفها

- إن أتصرف بدون موافقتك .
قلت فاطمة

لكن أصغر من أن تقيمي في دار المسيين .
تعازج في عينيها الألم والحيرة
- إياهم يرينون الشقة .

ضربت فاطمة صدرها براحتها :
- تقتلين نفسك من أحلهم ؟!

وهي تغمض عينيها .
- د . لم أحقق لهم ما يظنون ، فدنا أكرههم ،
وتهدج صوتها باليأس

- ليأخذوها !

احتدبها الموقع المثل - من شارع جانبي - على شاطئ ميامي ،
لبحر الذي تحبه .

دخلت من الباب الحديدي الضخم ، واتجهت إلى المني - دي الطبيب -
في لوجهة ، عبر طريقة من العسيفساء ، على جانبيها أعمدة إبرة
وأحواص رهور وأشجار قصيرة ، متعاده

والأعمام والأخوال ، والكثير من أهلها ومعارفها . حتى شقيقها الأصغر
اكتفى في بلد العربة البعيد ، برسائل تساعد وصولها ، ثم اقتصر على
مكالمات تليفونية ، تهنى بالمولد السوي ، ورمضان ، والعيد . تحشى - عند
عودتها - ما لا تعرفه ، ما تعب عنها صورته ، سيرتها إحساس الفقد
وسط الجماعة التي تعرفها ، أشد مما يرهاها داخل الشقة

- يؤلمني أن من ننتظرهم لا يأتون .

ثمة شيء تصاعد في داخلها ، لم تستطع إبراكاه تماماً ، لا تعرف ما تريد ، ولا ماذا تفعل . اقتحمها شعور بغياب الأمان ، وتوقعت ما لم تتبين ملامحه .

قالت فاطمة

- ست نجاة .. لماذا لا تتزوجين ؟

شهقت وهي تشير إلى نفسها :

- أنا ؟!

- لن تفعل ما يفصّب الله !

وهزت رأسها في تأكيد

- لرواج ثابتة حق للأرملة والمطلقة .

شجحت بيدها

- أحتاج لمن يرعاني لا لمن أُرعاه !

غممعت، كأنها تكلم نفسها :

أنا أحيا من أجل باسم .

لم تعد قادرة على التفكير في شيء محدد . اتصلت النحطات ، لا تختلف

- في رقانة أيهما - لحظة عن الأخرى .

ومض السؤال في ذهنها لماذا لا تعود إلى دمنهور ؟

هزت رأسها بالنفي .

مذ تركت دمنهور تساعدت زياراتها إلى المدينة في ما يقرب الأربعين

عاماً ، تبدّلت الأمور ، فيصعب استعادة الأوضاع القديمة رحل لأبنان

استطرد دون أن تغيب ابتسامته

- ويظل رامى على انشغاله بتشعم رائحة النقود داخل المبنى ٢

وأناً فى نطق الكلمات :

- لا أوافق أن تتخلى دار المسنين .

ورفع حاجبيه فى استغراب :

هل نحكم على أنفسنا بالموت ، لكى نيسر حياة من يعيشون بالفعل ٣

بصحها ، أن تظن إلى نفسها ، ولا تخضع للإيماءات المهددة . ذكرها

بأنه ترك لها ما يتبع لها العيشة الطيبة . إذا كان قد أخطأ لما تحمل العبء

بمفرده ، فإن البداية الجديدة مسئوليتها منذ غيابه ، لابد أن تمى ما حولها ،

وتحاذر ، وتعيد التصرف فى مواحة تصرفات الآخرين .

هى لأن يجب أن تعتمد على نفسها فى كل شيء .

قال :

- قد تعوض الإرادة ضعف الحسد ٤

أعجب بنزولها إلى الطريق ، ودهائها إلى السوق . وترددها على مقامات

لأولياء ، والتمشى فى الشوارع .

نصحها أن تختار المواعيد المناسبة للنزول إلى الطريق ، فلا يضايقها

أد .

كتمت رغبتها لم تتبين السبب - فى أن يصحبها إلى شاطئ البحر ،

يغادران الشقة ، يهبطان السلم ، يعبران الطريق إلى المقعد الرخامى فى

الحاس للمقبل ، يطران ماحية البحر ، ويتبادلان الكلام .

كان يرايل موضعه ، يختفى ، هى ما يشبه اختفاء الطم الجميل ، تحلو

نفسه مم يخيف أو يقلق ، تعمرها لسكنية وهى تستعيد ما قاله ، تمر

اعتادت رؤيته - فى الموضع نفسه - على فترات متقاربة ، لا يختار موعداً
فى ليل أو نهار ، وإن اقتصر حضوره على الأوقات التى تغيّب فيها فاصمة ،
كانه يحرص على استعادة الأيام التى تبدلت برحيله .
وهو يتنسم

- من تأنين لى أن أعوض ما قصرت فى أدائه ؟

لم تعد تشعر فى وجوده بالعزلة ، تهمس بالقول أواجه مشكلة ، يهز
رأسه ، يستحثها على الكلام ، تروى ما تعانیه ، يبدى الفهم ، أو يستوضح ،
أو يسأل ، يعمق تعرفه إلى المشكلة ، يشير بالحل فور انتهاء روايتها ، أو
يشرد فى التأمل قبل أن يعلن رأيه ، حتى بعد أن يتركها ، يطن طيفه فى
مخيتها ، تستعيد الكلمات ، وتعبيرات الوجه واليدين .

قال إن رحيله لا يعنى نهاية الدنيا ، الناس ينامون ، ويستيقظون ،
ويجلسون على المقاهى والحدائق وكورنيش البحر ، ويسيرون فى الشوارع ،
يرطلون من البواقد والشرفات ، ويصيدون ، ويخوضون فى المباحثات ،
ويتحانقون ، وتهو أصواتهم بالضحكات والنكات والشتائم ، ويتراحمون على
الأوتوبيس والترام ، ويركبون البحر ، ويستمعون إلى الراديو ، ويشهدون
التلفزيون ، وترددون على المسارح وبور السيمما ، ويلوبون بمقامات
الأولياء ، ويحتفلون بالأعياد ، ويرزون المساجد ، ويتابعون صيد الحرافه ،
ويشجعون فرق الكرة ، ويظلمون .



الساعات وهي جالسة على الكرسي ، حلف النافذة ، لا تتأمل مشهداً محدداً ، إنما هي تسلم الشرود إلى ما بعد الأفق .

سكنت عن رواية جلساتها إلى محرم ، تبوح لفاطمة بما يشغلها ، وما تطلب فيه الصيحة ، زيارات محرم سرها الخاص الذي يقتصر عليهما تلجأ إليه كلما واجهت مشكلة ، تسأله ، تناقشه ، يبدي الرأي تنزل فاطمة إلى السوق ، أو لزيارة ابنتها ، يملأ وجود محرم الشقة ، يؤنس أوقات لهار ، يوجه - بملاحظاته - تفكيرها وتصرفاتها .
لم تعد الكوايس - وحدها - تأتي في النوم .

ثمة أطياف نورانية وتلاوات وتسايع وامتهالات ، ورجال سببتهم إلى أولياء الله ، أنست بهم في أحلامها ، لا يعلق من الأحاديث المتبادلة بينها وبينهم ما تستعيده ، أو تتذكره ، لكن المعنى الذي تصحو عليه يملأها بالسكية يدفعها - في اليوم نفسه - إلى زيارة مقام علي تراز أو أبو العباس ، تطيل الوقفة أمام الأعمدة النحاسية ، تقرأ الفاتحة ، وتطلب الصلوة والمدد .

توالى رنين الجرس . رافقته طرقات مقبضة اليد . اختلطت أصوات في
الخرج ، وتشابكت ، مبرت تلاحق الكلمات في صوت هباء ، ولهجة رامى
لامرة ، وصياح حودة البواب يعلو بما لم تتبينه ،
لا تتصور أن يشارك باسم فى أداها .
ترامى القول .

- ابتعدوا !

أدركت أن هباء وزوحها ينويان تعييز ما لحا به فى البداية ، ثم أكد
المعنى فيما بعد ، يستمعينان بآخرين لإملاء إرادتهما يحطمون الباب ،
يواجهونه بما لا يدور فى بالها ، و لا تقوى على رده
تلغمت حولها .

بدا محرم واقفاً على مدخل الطريقة ، تطل من عينيه نظرة محرصة ،
ومضة ، ثم اختفى .

قال فى آخر لقاءاتهما :

- لا تتراجعى ، افرضى إرادتك !

وملات البسمة ملاصحه .

- عشنا سنوات طويلة ، تصورت خلالها أنى أعرفك جيداً ، وأنى تروجت
أجمل امرأة فى الدنيا .

ولون صوته بنبرة متواطنة .

- عرفت الآن أن لزوجتى ما يفوق كل معانى الجمال ؟

عودت التلغمت .

لا أحد ، ولا شيء ، سوى الهدوء الساكن فى داخل الشقة ، والأصوات
لتشابكة فى الخارج .

عسى الارتباك ، عجزت عن تدبر الخطوة التالية هل تطل على صمتها ؟

لم تنتبه إلى الصريرات التي تطرق الباب إلا بعد أن تلاحقت ، وقويت .
 تعالى - بعدها - صوت جرس الباب .
 متى تعود فاطمة من السوق ؟
 حدثت الزائر من ضغطة الجرس .
 تكذبت من حديثها برؤية الطيعين الواقعين أمام الباب - وسط أطياف
 أخرى - استنها وزوجها .
 هل يعبدان ما ألعا عليه في زيارتهما السابقة ؟ .
 لن تعلمن إلى استقرار حياتها ، مادام رامي يومئ بتلميحاته ، ويعد لما
 يصعب تخمينه ، أو تصويره .
 رفضت مدقشة الأمر ، رفضت تبديل الشقة . ألغت الحياة فيها ، صارت
 جزءاً من حياتها . جاور التلميح ، إلى المصارحة ، إلى الضغط والتهديد
 - من حق هناء أن تقيم في شقة أبيها .
 تبينت - فيما يشبه المفاجأة - أنها تحوز - بمساعدة محرم - معركة
 لا تنتهى . لم بعد يشعلها إلا أن تغور في معركتها ، تظل في البيت ، لا
 تتركه ، مهما يحاصرهما رامي بتهديداته
 أحسست وهي تغلق الباب وراءها ، أنها تأخرت في تنفيذ ما كانت قد
 استقرت عليه .

لحظة واحدة ، فلا تحطى ، حتى المبهات الصغيرة علت أجراسها الرفيعة
والمرتفعة الرنين ، المنقطعة والمتواصلة . صنع تلاقى الأصوات وتنفرها ، ما
دفعها إلى ، لتحرك - بعفوية - فى موضعها

هل هو محرم ؟

لمحت النشابة مسجودة إلى ركن الصالة ، تنقلت نظراتها بين موضع
لشابة ، والباب ، كأنها تقيس المسافة .

علا صوتها - من وراء الباب المغلق - بنبرة كالحشيرة

- من ؟

هل تصرخ بالاستغاثة ؟ هل تلجأ إلى التليفون ؟

شعرت أن عليها أن تواجه ما لا سبيل إلى تجنبه .

كانت النظرة المحرصة هي آخر ما رأيته في عينيه ، قبل أن يزایل المكان .

ترامى من البحر صخب غير مألوف فى هذه الأيام . الصيف يجعل

الأمواج حصيرة ، تهدأ الكائنات والأشياء . صيادو السنارة يلقونها من

واضعهم فوق الكورنيش الحجرى والمكعبات الأسمنتية ، تصنع نواثر تتس ،

بتضيق ، تغيب تماماً ، ينتظرون جذبة التقاط الطعم ، حتى الطيور تحلق فى

تراخ ، والأسماك تتقافز ، وتغطس إلى الأعماق القريبة ، الصافية ،

والقوارب الصغيرة كأنها التمسقت فى مواضعها ، يعمق إلقاء الطراحة

وسحبها من الصمت السادر .

تعالى هدير الأمواج ، وهبوب الريح ، واختلاط صياح الطيور ، وأصوات

أخرى - لا تعرفها - تترامى من داخل البحر ، وتشابك صافرات السفن ،

وتلاطم سعف النخيل على امتداد الطريق ، وتلاحق بومات رملية ، ترافقها

تكسرات ، وارتطامات على الأرض ، وفى الجدران ، كأيام النوات .

أدركت من النوى الهائل والرذاذ الذى اصطدم بزجاج النافذة ، أن

الأمواج قذغت مكعبات الأسمنت إلى الطريق ، وانعكس وميض البرق داخل

الصالة ، وعلا ما يشبه الرعد ، واندلقت الأمطار كالسيل .

توقعت - لا تدري كيف - من الصخب المترامى عبر النافذة ، ما يعينها

على المواجهة القاسية .

تنحت لاندفاع العاصفة فى اتجاه الباب المغلق ، كومت وراء ما لقيته من

قطع الأثاث على جانبي الصالة ، وفى الطرقة ، والمشاية الصوفية الطويلة ،

تصاعدت إلى قرب السقف ، صنعت باباً ثانياً ، أو جداراً .

أثار فى نفسها ما لم تعهده من قبل - وبما لم تستطع تبينه - انطلاق

دقات الساعات المتباينة النغمات ، الموزعة فى الشقة ، كأنها ضببطت على

هذه الرواية

انطلاقاً من مقولة طارق بن زياد المشهورة (وإن يكن بعض المؤرخين يشككون في صحة نسبتها إليه) وهو يحث جنوده على الصمود إذ ليس شمة سوى البحر من أمامهم والعدو من خلفهم يستوحى محمد جبريل عنوان هذه الرواية الفاتنة التي ترصد - بدقة وصبر - تحولات جيلين أو أكثر وذلك من خلال وعى شخصيتها الرئيسية: نجاة التي فقدت زوجها - كان مستشاراً في منظمة الصحة العالمية - ولكنها تعيش مع الذكرى في شقة مظلة على بحر الإسكندرية، وتلتحم أفكارها ومشاعرها بمن يحيطون بها: ابنتها هناء وزوجها رامي، وحفيدها باسم، وشقيقاتها - الآن صديقتها - فاطمة، وبوابها جود، ولكن محرم زوجها يظل أكثر واقعية - في وجدانها - من كل هؤلاء.

هذه - على إيجازها - رواية أجيال يأخذ كل جيل منها برقاب سابقة ويمهد لللاحقة، وكأنما هي أمواج البحر المتعاقبة التي تطل عليها نجاة من نافذة شقتها، وصنعة الروائي هنا محكمة رقيقة وكأنما ينسج قطعة من المخرم بأنامل صنّاع بارعة، شمة قصد كامل في التعبير، نون زوائد أو فضول، وتوازن في رصد المشهد الخارجي والعالم الداخلي للشخص، وهتان إنساني غامر يحيط به الروائي بطلته التي عرفت الوحدة بعد صحبة، والوحشة بعد انس، ونذر الشيفوخة بعد فناء.

البحر أمامها، حقا، ولكن وراءها ما يعين على الصمود، حب الزوج الذي يحوطها برعايته ونصحه حتى بعد رحيله، روح المقاومة التي ترفض الظلم، قوة الحق التي تقف في وجه زوج ابنتها الراغب في الاستيلاء على شقتها قط إن تسمح نجاة - انظر دلالة الاسم - بأن تعود طريدة شريفة تقضي ليلها في حديقة المنشية بعد أن أنشبت فيها ابنتها - كبسات الملك لير أو بنات الأب جورجو - أنياب العقوق، هكذا يرسى محمد جبريل - بلغة الفن - قيمة إنسانية كبرى تربط بين الذكرى والحاضر في وعى بطلته، وتطلى من معاني العدل والفراح والوفاء ولو كان ذلك بإبراز غيابها عن عالم قاس لا يرحم.

٥ أكتوبر ٢٠٠٩



كتاب المراسل

جرجي زيدان

الصهيونية

تاريخها وأعمالها

دراسة وتقديم: حلمي النمنم

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شبيب

لجنة

على الـ

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شبيب